لف لام العرب ۲۸

أبوالعتااءالمعرى

ئاليف الدكتورة عائشه عبدالرمن بنيايشا هِيُ

> المؤتشة المصرتير العشامتر النأليف والأنتباء والنشر الدار المصرمة للنأليف والترجر

لم يكن من الهين على. " أن أجمع حياة أبى العلاء فى كتاب واحد. فحياته طويلة حافلة خصبة ، وكان الرأى عندنا ألا تتورخ جملة ، قبل أن نفرغ من بحوث مفردة لكل جانب منها . وقبل ذلك " يجب أن يكون تراثه بين أيدينا محققا ، لأنه الذى يعطينا مادة درسه ، ويضى علنا فهم شخصيته .

ونحن لما نفرغ من نشر نصوص محققة لكل ما وصل الينا من تراث أبى العلاء ، كما لم نفرغ بعد من دراسة جوانب شخصيته الرحبة على وجه التخصص ، ومن ثم كنت أفضل أن أرجىء تقديم هذا الكتاب ، لولا أنى كرهت ألا ألبى الدعوة الى كتابة ترجمة موجزة لأبى العلاء ، تقدمه الى جمهرة قراء العربية ، بعد أن حجب عنهم طويلا ، أو صور لهم على غير حقيقت ه التى تقدمها لنا آثاره .

وأنا أكتبها اليوم ، بعد طول صحبة لأبى العلاء فى تراثه ، وتخصص فى تحقيقه ودراسته ، واذا كانت طبيعة المجال فى مثل هذه الترجمة ، لا تسمح باعطاء كل مصادر المادة ومراجعها ، ولا تتسع لتفصيل المقدمات التى انتهت بنا الى رأى أو نتيجة ، فانى لأرجو أن يطمئن القارىء الى أن ما نقدمه اليه من هسذه الترجمة الموجزة ، انما يعتمد أصالة على ما تم لنا من درس

لأبى العلاء » واستقراء لمصادر هذا الدرس ، من آثاره وأقوال مؤرخيه .

وبعد فلست أرى أن أتعجل فأقدم أبا العلاء الى القراء فى كلمات من هذه المقدمة ، على نحو ما يفعل كثير من كتاب التراجم . بل أوثر أن أدع أبا العلاء يقدم نفسه فى هذه الترجمة التى اتخذناه فيها دليل الرحلة . ذلك لأنه بين أدباء العربية ، يمكن أن يقال انه الوحيد الذى نستطيع تنسيق أدبه فى صورة مذكرات لحياته ، وقد حرصت أشد الحرص ، على أن أترك له مهمة الحديث عن نفسه منذ وعى الى أن رحل عن الدنيا ، وأن أنقل الى القراء صوته فى كل خطوة من رحلة الحياة ، دليلا أمينا صادقا .

والله المستعان .

عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

مصر الجديدة (رمضان : ١٣٨٤ مصر الجديدة (ينساير : ١٩٦٥

الفصت لالأول

قبت المولث. الوراثة

_ أجن اد و أبتاء « من من الأوراب سي من

تنوخ ، بنوالساطع ، آل شليمان

_ أخوال . . _ . .

بنوسسبيكة

الوال، الأم ، الانحوة

أجبداد وآباء

ونحن عسلى قتو الهسا أمراء

وما سلبتنا العـــنَّ قط قبيــلة

ولا بات منا فيهم أسراء

ولا سار في عرض السماوة بارق

وليس له من قومنا خفراء (سقط الزند)

خرج الى الدنيا والشمس غاربة والنهار مدبر ، وكانت ليلته الأولى على الأرض من ليالى المحاق ، ولولا مولده فى بيت علم وفضل ، لطويت تلك الليلة فى غيابة الزمن ، ولضاعت منا معالم الطفولة لذلك الوليد الذى قدر له أن يبهر الناس بعد حين ، وأن يلفت اليه تاريخنا الأدبى فيسجل أنفاسه منذ شب عن الطوق .

ذلك أنه حين ولد بمعرة النعمان ، من أعمال حلب ، فى مغرب الشمس من يوم الجمعة لثلاث ليال بقين من ربيع الأول سنة ثلاث وستين وثلاثمائة للهجرة ، لم يكن فى حساب التاريخ ذلك الأديب الأكبر الموعود بالمجد ، ولا كان لأحد من أهل بلده أن يتكهن بأن هذا الوليد ، سوف يغدو أشهر من ينسب الى « معرة النعمان » فلا تذكر فى كتب البلدان والرحلات والتاريخ الا مقترنة

باسمه ومعرفة به » مع أنها لم تكن مجهولة قبل مولده ، فقد ذكرها « البلاذرى » فى (فتوح البلدان) « وابن حوقل » — من جغرافيى القرن الرابع — فى (المسالك والممالك) « والواقدى » فى (فتوح الشام) .

كل ما فى أمر هذا الوليد ، أنه « أحمد بن عبد الله بن سليمان » سليل بيت ماجد معرق فى الفضل ، وآباء كرام منجبين ، فيهم ميراث بنى الساطع وعز تنوخ .

* * *

وتنوخ قبيلة عربية أصيلة ، يتصل نسبها بيعرب بن قحطان جد العرب العاربة ، ويمضى النسابون بها الى بعيد ، فيصلونها بهود بن شالح بن رافد بن سام بن نوح عليه السلام .

وكانت تنوخ بطونا من تيم اللات القضاعي القحطاني ، سميت بذلك لأنها تنخت من قديم بالشام ، أي أقامت ورسخت . ويقال انهم الذين اختطوا الحيرة وكانوا أول من عمرها ونزلها ، وكان لهم بأس وقوة وغناء وكثرة ، وماضيهم حافل بالعزة والقوة والاباء ، وكانت لهم في الجاهلية وقائع ظافرة مع الفرس ، ويشهد المؤرخون لتنوخ بأنها «كانت من أكثر العرب مناقب وحسبا » .

وكذلك كانوا فى الاسلام من أشد قبائل العرب شوكة وأكثرهم فى جند الفتوح عددا ، وقد أبلوا فى قتال الفرس بلاء مشهودا حمية للعرب ، وان كانوا على دين النصرانية . وفى تاريخ

الفتوح أنهم أبوا — مع ذلك البلاء فى قتال الفرس — أن يؤدوا الجزية ، أنفة واعتزازا ببأسهم وبلائهم ، فلما سار «عمر» رضى الله عنه الى الشام ، قدموا عليه فلم يقنع منهم الا بالاسلام أو الحرب ، وأمهلهم سنتين ، على أن يؤدوا ما على أهل الذمة من جزية . فأبوا عليه وقالوا : خذ المال منا على اسم الصدقة دون اسم الجزية . فأبى «عمر » ثم أجابهم الى أن يأخذها على اسم الخراج . فاستجاب له قوم منهم وأقاموا بديارهم ، وكان منهم أجداد أبى العلاء ، وأسلم بعضهم فى أيام أبى عبيدة بن الجراح ، وبعضهم فى أيام المهدى بن المنصور أبى جعفر العباسى . أما الذين لم يستجيبوا ، فدخلوا الى بلاد الروم وهم على نصرانيتهم ، مع لا جبلة بن الأيهم » آخر ملوك غسان .

* * *

وبنو الساطع ، الذين منهم بيوت المعرة ، أعز بطون تنوخ ، « وهم المشهورون بالشرف والسودد والرياسة والشجاعة والفضل » واسم الساطع : « النعمان بن عدى » قيل انه لقب بالساطع لجماله وبهائه ، وكان جوادا شجاعا ، ملك عليهم برهة وكانت له حروب ووقائع مع ملوك الفرس » وشن الغارات على السواد ، فسميت تنوخ على أيامه بالدواسر ، لما ظهر من شدتهم وناسهم .

وبعض المؤرخين يقولون ان « معرة النعمان » تنسب اليه ، وآخرون يذهبون الى أنها منسوبة الى « النعمان بن بشير الأنصارى » وكان واليا على حمص وقنسرين فى عهد معاوية

وابنه يزيد ، فخرج ابن للنعمان فى رحلة صيد الى أجمة كانت موضع المعرة ، فافترسه سبع فجزع عليه أبوه النعمان ، وبنى له منزلا عند قبره ، فبنى الناس لبنائه وعمرت البلدة ونسبت اليه .

* * *

وبيت أبى العلاء ٥ من بنى سليمان بن داود بن المطهر ٥ سليل الساطع . وفيهم يقول « ابن العديم » مؤرخ حلب : « وأكثر قضاة المعرة وفضلائها وعلمائها وشعرائها وأدبائها من بنى سليمان » وسليمان هو الجد الخامس لأبى العلاء ، ولى حفيده أبو الحسن سليمان بن أحمد ، قضاء المعرة ٥ ثم تولاه من بعده ولده أبو بكر محمد ، جد والد أبى العلاء ٥ وفيه يقول أبو بكر الصنوبرى :

بأبى يا ابن سليمان لقد سدت تنوخا وهم السدادة شبانا لعمرى وشيوخا أدرك البغية من أضحى بناديك منيخا واردا عندك نيلا وفراتا وبليخا واجدا منك متى استصرخ للمجد صريخا فى زمان غادر الهمات فى الناس مسوخا

وخلفه على قضاء المعرة بعـــد وفاته سنة ٢٣٦ هـ ، ولده أبو الحسن سليمان بن محمد ، ثم تولى معه قضاء حمص أيضا ، وكان محدثا فاضلا شاعرا ، ومن شعره فى الناعورة :

وباكنة على النهب تذكرني بأحسابي وأذري مثل ما تذري على فقدى الأحبابي فما هي فيه مشهور

تئن ودمعها يحري وحالى ليلة النفر وأسعدها وما تدرى وما قد فاتمن عمري وما أنا فيه في الستر كأني في سبط الأرض بن الناس في قبر

والقاضي أبو الحسن سليمان ، هو جد أبي العالاء . توفي بحمص وهـو على قضائها في جمادي الأولى سنة ٣٧٧ هـ وأبو العلاء في الرابعة عشرة من عمره .

وجِدَّةً أبي العلاء لأبيه: أم سلمة ، بنت أبي سعيد الحسن ابن اسحاق بن بلبل المعرى . ولى أبوها قضاء المعرة ، وكانت تروى الحديث . وقد عاشت حتى بلغ حفيدها أبو العالاء سن الطلب. وعدتها « ابن العديم » في (كتاب الانصاف والتحري) بين الشيوخ الذين سمع أبو العلاء منهم الحديث.

السلالة المعرقة في الفضل والعزة والعلم والأدب # تلقى ميراثه . وقد كان بعد أن شب ووعى بادى الاعتزاز بقومه وآله ، حريصا على تتبع مناقبهم ومفاخرهم وقراءة ديوان شعرهم . وله فيهم شعر نابض بالحب والفخر والولاء ، منه قوله في قبيلته :

أتمشى القوافي تحت غير لوائنا

ونحن على قو"الهــا أمـراء

وأى عظيم راب أهــل بلادنا فانا عـلى تغييره قدراء وما سـلبتنا العـز قط قبيلة ولا بات منــا فيهم أسراء ولا سار فى عرض السماوة بارق وليس له من قومنـا خفـراء

أخسواله

كأن بنى سبيكة فوق طير يجوبون الغـوائر والنجادا (سقط الزند)

أما خئولته ففى بيت معروف من بيوتات حلب . جده لأمه : محمد بن سبيكة ، وخالاه أبو القاسم على وأبو طاهر المشرف (١). وكانت صلته بهما وثيقة ، ولهما فى تراثه ذكر خاص ، ينبض بالمودة والاكبار . ونفهم منه أن أبا القاسم كان من أعيان التجار ، أما أبو طاهر فكان من شيوخ العربية .

ففى ديوان سقط الزند ، قصيدة مطولة أرسلها الى خاله أبى القاسم على ، وكان قد سافر الى المغرب فأطال الغيبة ، ومما قال فيها :

تفدّيك النفوس ولا تفادى

فأدن الوصل أو أطل البعادا

⁽۱) ذهب الأستاذ محمد سليم الجندى ، فى كتابه (الجامع) الى أن أبا طاهر هو ابن خال أبى العلاء « على أبى القاسم » وكان اهم ما استدل به ، رسالة كتبها أبو العلاء الى أبى القاسم يعزيه فى أخ له اسمه أبو بكر ، وقال فيها: « والله يبقيه ولا يشقيه ، ويريه فى مولاى أبى طاهر وولده ما رآه فى ولده سعد والعشيرة .. » ولم نظمئن الى ما ذهب اليه ، فليس ما يمنع من أن يعزى بالأخ الحى عن الأخ الفقيد .

أرانا يا على." وان أقمنــــا

نشاطرك الصبابة والسهادا

ولولا أن يظن بنــا غلو

لزدنا في المقال من استزادا

وقيل : أفاد بالأسمفار مالا

فقلنا: هل أفاد بها فؤادا ?

وهل هانت عزائمه ولانت

فقد كانت عرائكها شدادا

اذا سارتك شهب الليل قالت

أعان الله أبعدنا مرادا

وان جارتك هــوج الريح كانت

أكل ً ركائبا وأقل زا**دا**

علام هجرت شرق الأرض حتى

أتيت الغـــرب تختبر العبــادا

وان تجد الديار كسا أراد ال

غريب ، فما الصديق كما أرادا

اذا الشعرى اليمانية استنارت

فجدد للشامية الودادا

ظعنت لتستفيد أخا وفيا

وضيعت القديم المستفادا

نراسلك التنصيح والقوافي

وغيرك من نعلمــه السـدادا

والى أبى القاسم على ، كتب أبو العلاء رسالته اثر انسحابه من بغداد ومن الدنيا ، فبكى فيها أمه التى ماتت قبل وصوله ، ونفض لدى خاله ما كان يثقله من هم ويئوده من قهر وشجن ، واعتذر اليه عن عدم مروره بحلب ، في طريق العودة من بغداد ، اعتذار مقصر محزون ...

وذكر خاله أبا طاهر ، فأثنى عليه أطيب الثناء ..

وختم رسالته بتحية حارة الى خاليه أبى القاسم وأبى طاهر فقال:

« وأنا أحسل الى مولاى ، أدام الله عسره ، والى مولاى أبى طاهر عضدنى الله ببقائه ، سلاما له نضرة الألاء وصفاء الماء وعذوبة الأرى وتتابع القطر وخلود النجوم وأرج العرار وتألق الوميض »

ولدينا كذلك من مجموع رسائل أبى العلاء ، رسالة أخرى كتبها وهو ببغداد ، الى خاله الشيخ أبى طاهر المشرف ، ومنها نعلم أنه كان مشتغلا بأمر (شرح السيرافي) لكتاب سيبويه فى النحو ، كما نعلم أنه كانت بينه وبين أبى العلاء مراسلات سابقة ه حول نسخ من شرح السيرافي بخطوط مختلفة ، أراد أن يعرف رأى أبى العلاء في كل منها .

والرسالة تستهل بالاعراب عن شهوق عميق لخاله ه وأسف لبعده ه وتذكر لماضى أوقاته معه « تذكر الفطيم ثدى الوالدة » وفزع الى نجدته ، وثقة بمكارمه ه وشكر على أياديه يتجدد مع النفس ثم قال:

« وفى هذا اليوم وصل كتابه فسررت به سرور الظمآن ورد نميرا والساهر صادف سميرا . وكان ما ضمنه من ذكر سلامته ، بشرى لها تخف الأحلام خفة القائل ولا يلام : (يا بشرى هـذا غلام) والله يمن باجتماع ليس بعده من ازماع .

« وفهمت ما ذكره من أمر النسخة المحصّلة ، وهو أدام الله عزه ، الكريم المتكرم وأما المثقل المبرم ... وقد كنت قلت فى بعض كتبى الى سيدى : ان كانت الخطوط مختلفة والأبواب مؤتلفة فلا بأس ... ما عدا خط على بن عيسى — الربعى — فانه رجل اتكل على مافى صدره فتهاون باحكام سطره . وانسا رجوت ببركته — يعنى خاله — أن يرتفق أناس كما قال الله تعالى : (وشروه بشمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين)

« وأنا والجماعة نهدى الى سيدى الشيخ والى جميع أصدقائه ، سلاما تأرج الكتب بحمله .. وحسبى الله »

* * *

وفى أخواله يقول :

كأن بنى سبيكة فوق طير يجوبون الغوائر والنجادا أبالاسكندر الملك اقتديتم فما تضعون في بلد وسادا

الوالسير

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى والديل والردن وسهد المنى، والجيب، والذيل والردن فيا ليت شمعرى همل يخف وقاره اذا صار أحسد فى القيمامة كالعهن وهل يرد الحوض الروى مبادرا

مع الناس ، أم يأبي الزحام فيستأفي (سقط الزند)

أما أسرة الوليد — ونستعمل الأسرة بدلالتها المألوفة فى عصرنا ، وبهذه الدلالة استعملها أبو العلاء فى رسالة الغفران وفى سقط الزند — فوالده عبد الله بن سليمان ، ولد سنة ٣٣٠ هـ وجده أبو بكر محمد بن سليمان على قضاء المعرة ، وبعد على عام واحد من مولد « عبد الله » ، توفى جده فخلفه أبوه على قضاء المعرة ، وولى معه قضاء حمص . وكانت لعبد الله أخت تزوجت فى آل المهذب المعرى ، وولدها أبو صالح محمد ابن المهذب ، من لدات أبى العلاء ورفاقه فى الدرس .

روى عبد الله الحديث عن جده وأبيه ، وعن عدد من شيوخ الشام في عصره ، منهم الحافظ أبو بكر السبيعي نزيل حلب ،

وأبو عبد الله الحسين بن خالويه امام اللغة بالشام ، وعبد الله ابن محمد البغوى .

وقد أصهر الى بيت كريم من بيوت حلب ، فتزوج « بنت محمد بن سبيكة » فى وقت لم يحدده الاخباريون » وان كنا نستطيع أن نظمئن الى أن هذا الزواج كان حوالى عام ٣٥٠ ه أو بعدها بقليل ، حيث نقرأ فى أخبار الأسرة ، أن أبا المجد محمد » الابن الأكبر لعبد الله ، ولد سنة ٣٥٥ ه ، وأبوه فى الخامسة والعشرين من عمره . ومضت ثمانى سنوات قبل أن يرزق الأبوان بوليدهما أحمد أبى العلاء سنة ٣٦٧ هد . ثم ولد أخوه الأصغر ، أبو الهيثم عبد الواحد ، سنة ٣٧٧ ه .

* * *

ولا كلمة واحدة ، فيما ذكر مؤرخو الأسرة أو مؤرخو أبى العلاء ، عن الحياة الخاصة للأسرة ، مما يمكن آن يضيف ضوءا جديدا لفهم موقف أبى العلاء من الزواج والمرأة ، الى جانب ما نعرفه من ظروفه الشخصية ، مستقلة عن الجو النفسى والمعنوى للبيت الذي تنفس فيه ، وعاطفة أبويه أحدهما نحو الآخر .

وثلتقط مع ذلك بيتين رواهما « ابن العديم » من شعر عبد الله » نفهم منهما أنه قد كانت له جارية تشغل من قلبه مكانة خاصة ، وتشده اليها عاطفة قوية معلنة » فلما ماتت حزن

لفراقها حزنا شدیدا ، بحیث ود" لو أنه كان المیت ، وكانت هی التى تتقبل العزاء فیه :

مولاك ِ يا مــولاة مولاها على

حسال تسر عدوه ۵ وتضره ویود"ه لـو کنت أنت مـکانه

في الزائرين ، وأن قبرك قبر.

ويشهد نص آخر من شعره ۵ أنه كان مشبوب العاطفة مرهف المزاج رقيق القلب ، متفننا في صنعة الشعر :

سمعتم بأجور من ظالم أعل الفؤاد وما عاده وقد كان واعدني مرة فأخلف يا قوم ميعدد

أما ملامح شخصيته ، فيما عدا هذا الذي ذكروه عن علمه وفضله » ورووا له من شعر ينم عنرقة قلبه وحرارة عواطفه ، فنستطيع أن نميزها في حديث ولده أبي العلاء عنه . وأبو العلاء لم يتحدث عنه الافي مرثية واحدة ، نفيض بالاكبار والاجلال ، وتمثله لنا نقى الضمير واليد واللسان ، مهيبا وقورا يتحاشى الزحام :

أبي حكمت فيه الليالي ولم تزل

رماح المنايا قادرات على الطعن

مضى طاهر الجثمان والنفس والكرى

وسهد المني ، والجيب والذيل والردن

فيا ليت شعرى همل يخف وقاره

اذا صار أحند" في القيامة كالعبهن

وهل يرد الحوض الروى مبادرا

مع الناس أم يأبي الزحام فيستأني

أمـر. بربع كنت فيـــه كَأنمـــــا

أمر من الاكرام بالحجير والركن

واجسلال مغناك اجتهساد مقصر

اذا السيف أودى فالعفاء على الجفن

ونعلم من أخبار أبي العلاء ، أن والده كان معلمـــه الأول ، وعنه روى الحديث وتلقى دروسه الأولى في علوم اللغة ، ومنه تلقى ميرائه الشعرى لا حيث يخاطبه في مرثبته بقوله :

أمولى القوافى كم أراك انقيادها

لك الفصحاء العرُوب كالعجم اللكن

وقد ظل يرعاه ، ويقوده على الطريق الى أن رزىء بموته . وفي سنة وفاته ومكانها ، اختلف الاخباريون 4 فعند ياقوت أن عبد الله « توفى بحمص سنة ٧٧٧ هـ » على حين يذكر « ابن العديم » أنه توفى بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ .

والراجح عندنا قول ابن العديم بوفاة والدأبي العلاء بمعرة النعمان سنة ٣٩٥ هـ ، على ما سوف نبينه في موضعه من حياة أبى العلاء .

الأم

سقتنی در ها ، ودعت ، وباتت

تعوذنى وتقرأ أو تسمى من قصيدة لأبى العلاء في شيخوخته

وقلما التفت مؤرخو أبى العلاء وجامعو أخباره ، الى الأم التى أنجبت أديب العربية الأكبر . وكل ما ذكروه عنها ، أنها « بنت محمد بن سبيكة » وأنها ماتت وأبو العلاء فى طريق عودته من بغداد الى المعرة ، سنة ٠٠٠ هـ ، قبل أن تودعه !

من بعدد الى العلاء ، فلا نجد فيها من الشطر ونستقرىء آثار أبى العلاء ، فلا نجد فيها من الشطر الأول ، حديثا عن أمه . لكنها تبدأ فتظهر فى آثاره ، من بدء رحلته الى بغداد ، ثم يظل طيفها معنا فى جوه ، الى آخر العمر . وهو ما سافر الى بغداد ، الا بعد أن استأذنها فأذنت له فى

السفر . حيث نقرأ فى رسالته الى خاله أبى القاسم على : « على أنى والله قد أعلمتها أنى مرتحل ، وأن عزمى على ذلك جاد مزمع ، فأذنت فيه » .

ونكاد لا نتردد فى القول بأن وراء حنينه الى المعرة أيام غربته ببغداد ، طيف هذه الأم التى آثرها بأعمق الحب وأصفاه ، وكان

حبه لها نقيا محضا غير مشوب بعنصر الاكبار الذى يغلب على حبه لأبيه وخاليه على والمشرف . وقد أجهده الحنين الى الديار اثر فراقه لها 4 وكان تحنان الأبل يهيج مواجعه وأشجانه ويلهب فيه الوجد والشوق :

لقد زارني طيف الخيال فهاجني

فهل زار هذى الابل طيف خيال

وان ذهلت عما أجن صـــــــــــدورها

فقد ألهبت وجداً نفوس رجال

تهــاداني الأرواح حتى تحطني

على يد ربح بالفرات شـــال

فيا برق ليس الكرخ دارى وانسا

رماني اليه الدهر منه ليال

فهل فيك من ماء المعــرة قطـرة

تغيث بها ظمآن ليس بسال

ذلك الطيف الزائر كان طيف أمه ، يعاوده فى اليقظة والمنام، حيث نسمعه فى احدى مراثيه للأم ، يتحدث عن حلم ألم به فى الكرى ، فرأى أن أحد نواجذه سقط ، وتشاءم وفى قلب هاجس مرعب ، لولا أنه استهول أن يكون تأويل رؤياه موت أمه ، وشتان ما بين ناجذ يجد عنه عوضا ، وبين أم لا عوض عنها ولا عناء!

وقد بلغه وهو بالعراق أنها مريضة ٥ فعجل ذلك بعودته الى المعرة ٥ وحسم قراره بالانسحاب وكان قد صمم عليه ٥

لكنه أقام يتهيأ له ويترقب الفرصة . وفى قصيدة من مسقط الزند ، يقول مخاطبا أهل بغداد بعد فراقه لهم :

أثارني عنكم أمران: والدة

لم ألقها ، وثراء عاد مسفوتا

أحياهما الله عصر البين ثم قضى

قبل الاياب الى الـ نخــرين أن موتا

لولا رجاء لقائيها لما تبعت

عنسى دليلا كسِر "الغمد اصليتا

ولا صحبت ذئاب الانس طاوية

تراقب الجدى في الخضراء مسبوتا

ذلك لأنه آب الى داره ، فوجد أمه قد ماتت قبل أن يلقاها . فكأنما ارتد لفرط حزنه وجزعه ، طفلا رضيعا فقد أمه ! وتشجينا مراثيه لها ، على بعد العهد بها ، ونحس أنها ومضات لهب متقد فى فؤاده المتصدع . ومنها ، ومن أشعار له فى اللزوميات ، وأماليه عن أمه فى الفصول والغابات ، وفى رسائله الى خاله — وسوف نعرض لها بمزيد تفصيل — ندرك عمق العاطفة التى كانت تربطه بأمه ، وعجزه عن نسيانها والسلو عنها ، فى يقظة أو منام ، وفيها يقول :

اذا نمت لاقيت الأحبة بعدما

طوتهم شهور في الترابوأحوال! « يا سلوة الأيام موعدك الحشر ، موعد والله بعيد! »

وصدق أبو العلاء .

لم يسل أمّه قط ، على تطاول الأعوام وتنائى المزار: ففى شيخوخته الواهنة ، يذكرها فى قصيدة قالها فى ابن أخيه القاضى أبى عبد الله محمد:

أعبد الله ، ما أسدى جميلا نظير جميل فعلك مثل أمى سقتنى درها ودعت وباتت تعوذنى ، وتقرأ ، أو تسمى ويقول فى اللزوميات :

تصدق على الأعمى بأخذ يمينه

لتهديه ، وامنن بافهامك الصما

وأعط أباك النصف حيا وميتا

أقلك خفا اذ أقلتك مثقلا

وأرضعت الحولين واحتملت تما

وألقتك عن جهد وألقـــاك لذة

وضمت ، وشمت، مثلما ضم أوشما

ويؤكد هذا المعنى بقوله:

العيش ماض فأكــرم والديك به

والأم أولى باكرام واحسان

وحسبها الحمل والارضاع تدمنه

أمران بالفضل نالا كل انسان

ومن اللافت هنا ، أن أبا العلاء فى بره بالأمومة ، يذكر ما احتملت من مشقة وهم " ، وما بذلت من حنان وأسدت من جميل " وينسى لها أنها شاركت فى الجناية التى أخذ بها أباه فى بيته المشهور الذى أوصى أن يكتب على قبره :

هذا جناه أبى على " وما جنيت على أحد

الإخسوة

« وكانت الفتاوى فى بيتهم ، فى أكثر من مائتى سنة بالمعرة » (ابن العديم)

كانوا ثلاثة اخوة ، جمعتهم الأبوة الواحدة والمهد المشترك ، وتلقوا جميعا ميراث البيت المعرق فى الفضل والأدب ه على تفاوت فى حظ كل منهم من ذلك الميراث ، وعلى تباعد ما بينهم نسبيا ، فى المولد والسن والأثر ..

ولاً بى المجد ولدان وليا قضاء المعرة: أبو محمد عبد الله الذى كان من أقرب الناس الى عمه أبى العلاء ، وأبرهم به ، وأكثرهم اخلاصا فى خدمته . وسنعود للحديث منه فى فضلل يلى العلاما فى أبو الحسن على ، سمع على عمه أبى العلاء جميع أماليه ، ونسخها بخطه ، وولى قضاء حماة فى سنة ٤٥١ هـ بعد موت أبى العلاء بسنتين .

وثاني الاخوة 4 أحمد أبو العلاء

وأصغرهم: أبو الهيثم عبد الواحد ، المولود سنة ٣٧١ ه. وكان شاعرا مجيدا ننقل من شعره — فيما يأتي من حديث عن رحلة بغداد — قصيدة مؤثرة كتبها الى أخيه مستعطفا ، يسأله العودة رفقا بأحبابه فى المعرة . وهي تعطينا فكرة واضحة عما كان أبو العلاء يحظى به من حب أخيه واكباره . وقد كان شاعرا مجيدا « روى عنه أبو العلاء شيئا من شعره ، وجمعه لولده زيد بن عبد الواحد ، ومنه قوله وقد مر" برجل يقلع حجارة من أطلال « سياث » وهي المعرة القديمة :

مررت بربع من سياث فراعني

به زجكل الأحجار تحت المعاول

أمتلفها ، شلت يمينك خلها

لمعتبر أو زائر أو مسلمائل

منازل قوم حدثتنا حــــديثهم

فلم أر أحلى من حديث المنازل .

وقد قرأ زيد بن عبد الواحد على عمه أبى العلاء ، وكذلك قرأ عليه ولده منافر — جابر ? — بن زيد ، وكتب بخطه من تصانيف أبى العلاء ، ما شهد له « ابن العديم » بالفضل وحسن النقل .

* * *

وقد عاش أبو العلاء بعد أخويه .

أما الأخ الأصغر ، أبو الهيثم ، فمات سنة ٤٠٥ هـ ، ولما يبلغ

الخامسة والثلاثين من عمره ، وليس له عقب ســوى زيد وولده جـابر .

وأما الأخ الأكبر أبو المجده فعاش حتى بلغ الخامسية والسبعين من عمره ، وتوفى سنة ٣٠٠ هـ .

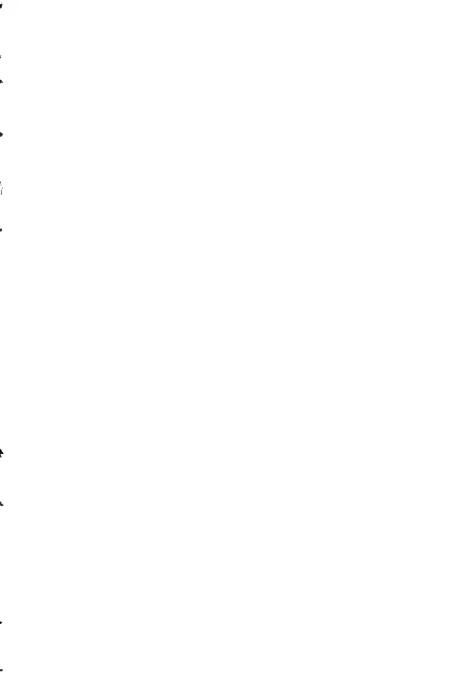
وفى ولد أبى المجد ، عقب بنى سليمان . وقد استقصى « ابن العديم » مؤرخ حلب ، من اشتهر منهم ، الى منتصف القرن السابع الهجرى ، بالعلم والفضل ، ومن ولى القضاء . ثم نقل عن أبى القاسم بن الحسين الأنصارى ، عن الحافظ أبى طاهر السلفى أنه قال :

« قال لى الرئيس أبو المكارم ، وكان من أفراد الزمان : وكانت الفتاوى فى بيتهم — يعنى بنى سليمان — على مذهب الشافعى رحمه الله تعالى ، فى أكثر من مائتى سنة بالمعرة . »

وماذا عن البيئة ؟

المألوف فى التراجم ، أن يأتى الحديث عن البيئة اثر الحديث عن البيت والأسرة ، لكنى فى هذه الرحلة لحياة أبى العلاء بوجه خاص ، أرى أن موضع الحديث عن البيئة والعصر ، يحسن أن يتأخر الى أن يفرغ أبو العلاء من الشوط الأول لرحلة حياته ، ويخرج الى الدنيا بسفره الى بغداد . فهناك يواجه البيئة العامة ، ويبلو تجربة الاتصال بها ، والتنفس فى جوها ، بعد أن كان قبل

الخروج ، يكاد يكون مشغولا عنها بهموم طموحه ، وشواغل تحديه لمحنته . أو بعبارة أخرى ، يكاد يكون شبه معزول فى نطاق دنياه الخاصة ، عما وراءها من صخب الحياة العامة وأوضاعها . فلنكتف الآن بما قدمنا لرحلة حياته ، من حديث عن بيته وأسرته .



الفص الناني

رحث آحيتاه

المرحلة الأولى معر*ك* النحدي وتطمشوح

- _ الطف ل الض مرير في الغاب الموهوب في الناس الموهوب في الناس في الناس الموهوب الناس المح الموسوب المو
- _ ومضات كاشف ت
- _ موت و الأب
- إحساى الاحسين

•			
•			
•			
4			
•			
•			
•			
r			

الطف لالضترير

«قضى على وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والربع »

من رسالة أبى العلاء الى داعى الدعاة

كان من حق مثله ، أن تنهياً له من بيئته ظروف مسعفة على النبوغ ، وأن يبدأ منذ الفطام خطوته الأولى على الطريق الذى سار عليه أبوه وأجداده كابرا عن كابر . ولعل مخايل النجابة لاحت عليه في طفولته الباكرة ، فأرهفت فيه مسيرات الطموح . لكنه ما لبث أن تلقى الصدمة الفادحة قبل أن تستقيم خطوته على درب الوجود : اعتل في سنته الرابعة علة الجدرى ، فما أبل منها الا وقد شوهت وجهه بندوب لا برء منها ، وذهبت ببصره مسدلة بينه وبين الدنيا حجابا كثيفا حالك السواد ، فما انجاب عنه حتى آخر العمر .

من ذلك الحادث الملم، تبدأ قصة أبى العلاء مع الدنيا ... ومن مؤرخيه من قال انه تلقى هذه الصدمة فى سنته الثالثة ، ذكر ذلك « الصفدى » فى (نكت الهميان) و «ابن حجر » فى (لسان الميزان) . لكن أبا العلاء يقول فى احدى رسائله الى داعى الدعاة :

« قضى على وأنا ابن أربع ، لا أفرق بين البازل والربع » وليس بمستبعد أن يكون قد جدر فى أخريات سنته الثالثة ، ثم عمى فى أوائل الرابعة . وكان كل ما بقى له من ذكريات عهده بنور العين ، لون الثوب الأحمر الذى ألبسوه اياه فى علته ، قال : « لا أعرف من الألوان الا الأحمر ، لأنى ألبست فى الجدرى ثوبا مصبوغا بالعصفر ، لا أعقل غير ذلك . »

* * *

وبقى لنا من ملامح صورته بعد المحنة ، ما نقله « ابن العديم » فى (الانصاف والتحرى) حكاية عن « ابن منقذ » أنه رأى أبا العلاء وهو صبى دون البلوغ ، ووصفه فقال : « وهو صبى دميم الخلقة مجدور الوجه ، على عينيه بياض من أثر الجدرى ، كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا . »

كما نقل من قول عبد الله بن الوليد الايادى المعرى ، وقد رآه شيخا :

« وكأنى أنظر اليه الساعة والى عينيه : احـــداهما نادرة والأخرى غائرة جدا ، وهو مجدّر الوجه نحيف الجسم » .

وتكفى هذه المرويات لنتمثله فى صباه الباكر ، حين بدأ يخطو على درب الحياة وبينه وبين الدنيا هذا الحجاب الأصم من ظلام دامس لا أمل فى انحساره

* * *

فى ذلك الحين لم يكن الصبى قد نضج وعيه أو اتسعت مداركه بحيث يقدر فداحة المحنة وهول المأسأة . وقد دربه أهله على

سواجهة عالم الظلام وراضوه عليه حتى ألفه واعتاده ، على أنه سوف يدرك بعد نضج السن والوعى ، إن مأساة حياته كلها بدأت بتلك الآفة التى قصت عليه وهو في الرابعة من عمره ، كما قال في الحدى رسائل شيخوخته وسوف نسمعه في الشطر الثاني من الحدى رسائل شيخوخته وسوف نسمعه في الشطر الثاني من مياته عن معنة العني الطلكام الذي المعنال الطويل الذي لا ينجلي به ويعد من مزايا ضجعة للقبر أيًا تأمين العين المنطفة في المالري على من عملي العين المنطفة في المالري على المنطقة في المالري على المنطقة في المالري المعنى العين المنطفة في المالي المنطقة في المالري المنطقة في المن

الغيلام الموهوب

« ما سمعت شيئا الا حفظته ، وما حفظت شيئا ونسيته » (أبو العلاء)

تعثرت خطوته الأولى على الطريق ، فقاده أبوه الى عالم يمنحه نور البصيرة ويكشف له عن آفاق الوجود المغلق أمام عنمه :

قرأ القرآن على جماعة من الشيوخ « ممن يسار اليهم فى القراءات » وسمع الحديث من أبيه عبد الله وجده سليمان وأخيه أبي المجد وجدته أم سلمة بنت الحسن بن اسحاق بن بلبل المعرى . وعن أبي زكريا يحيى بن مسعر المعرى ، وأبي الفرج عبد الصمد الضرير الحمصى ، والقاضى أبي عمرو عشمان الطرسوسى ، وغيرهم من محدثى المعرة وحلب فى زمانه .

وتلقى علوم اللغة والنحو بمعرة النعمان ، على أبيه ، وعلى أبى بكر بن مسعود النحوى ، وجماعة من أصحاب « ابن خالو به » .

وكان الذى ظهر من ذكائه ونجابته ، قد أغــرى أباه بأن يمضى به الى حلب — وفيها أخواله — حيث تلقى النحو عــلى « محمد بن عبد الله بن سعد النحوى » ·

وكان الظن الغالب ، أن أبا العلاء بدأ من ذلك العهد ،

اتصاله بالأدب ومعرفته بشعر المتنبى ، حيث كان شيخه ابن سعد ، راوية أبى الطيب . اكن خبرا نقله ابن العديم فى (الانصاف والتحرى) يجعلنا تتردد فيما غلب علينا من ظن . وخلاصة الخبر أن ابن سعد كان يروى ، بمسمع من أبى العلاء — وقد اجتمع معه بحلب وهو صغير — قصيدة المتنبى الدالية :

أزائر" يا خيال أم عائد أم عند مولاك أنني راقد ولم تكن القصيدة مما قرأه ابن سعد على المتنبى ، بل كانت مما أنفذه الله . فلما وصل الى قوله :

أو مَو ْضعا فى فناء ناحية تحمل فى التاج هامة العاقد رده عليه أبو العلاء الصبى وقال:

﴿ أُو مُوضِعًا فِي فَتَانَ نَاجِيةً (١) ﴿

فلم يقبل ذلك ابن سعد ، ومضى الى نسخة عراقية ، فوجد القول ما قاله أبو العلاء .

فهل كان الصبى قد اتصل بشعر المتنبى قبل مجيئه الى حلب ? أو كان ما قاله فى البيت لمحة وجدان ذكى ، تذكرنا بمثلها من «طرفة» حين سمع وهو صبى يلعب مع الغلمان بيت « المتلمس » : وقد أتناسى الهم عند احتضاره

بناج عليه الصيعرية مكدم

فصاح الصبي طرفة : « استنوق الجمل » .

لأن الصيعرية سمة في عنق الناقة لا البعير.

⁽١) أوضع في السير فهو موضع: أسرع . والفتان: غشاء من أدم يوضع فوق الرحل . والناجية: الناقة السريعة .

واستأنف المصبى المنيراف يطلف العلم الموق أخير أنه رحل الى طرا المشل الشام الموق الم

م والين العاديمان وهو اعبدينا أولى بالثقة النفي الرحلة الى طرابلس جملة تعنيقوال مقامل الانتخاف والتعاني المناسبة المناس

« وقد ذكر بعض المصنفين أن أبا العلاء رحل الى دار العلم بطرابلس للنظر فى كتبها . واشتبه عليه ذلك بدار العلم ببغداد ، ولم يكن بطرابلس دار علم فى أيام أبى العلاء ، وانما جدد دار العلم بها القاضى جلال الملك أبو الحسن على بن محمد بن أحمد ابن عمار ۵ فى سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة . ووقف ابن عمار بها من تصانيف أبى العلاء : الصاهل والشاحج ، والسجع السلطانى ، والفصول والغايات ، والسادن ، واقليد الغابات ، ورسالة الاغريض » .

وفى خبر آخر ، أنه رحل الى أنطاكية وتردد الى خزانة كتبها يحفظ ما فيها . قال « ابن منقذ » فيما نقل ابن العديم فى (الانصاف) : « كان بأنطاكية خزانة كتب وكان الخازن بها رجلا علويا ، فجلست يوما اليه فقال: قد خبأت لك غريبة ظريفة لم يسمع بمثلها ... صبى دون البلوغ ضرير يتردد الى ، وقد حفظته في أياء قلائل عدة كتب 4 وذلك لأنني أقرأ عليه الكراسة والكراستين مرة واحدة فلا يستعيد الا ما يشك فيه ، ثم يتلو على ماقد سمعه كأنه من محفوظه . قلت : فلعله يكون يحفظ ذلك . قال: سبحان الله ! كل كتاب في الدنيا يكون محفوظا له ? وان كان ذلك كذلك فهو أعظم . ثم حضر المشار اليه ، وهو صبى دميم الخلقة مجدور الوجه على عينيه بياض من أثر الجدرى كأنه ينظر باحدى عينيه قليلا ، وهو يتوقد ذكاء ، يقوده رجل طوال من الرجال أحسبه يقرب من نسبه ... فاخترت شيئا وقرأته على الصبي وهو يموج ويستزيده فاذا مر به شيء يحتاج الي تقريره في خاطره

يقول: أعد هذا. فأرده عليه مرة واحدة حتى انتهيت الى ما يزيد على كراسة ، فتلا على ما أمليته عليه وأنا أعارضه بالكتاب حرفا حرفا حتى انتهى الى حيث وقفت ، فكاد عقلى يذهب لما رأيت منه . وسألت عنه فقيل لى : هذا أبو العلاء التنوخى من بيت العلم والقضاء والثروة والغناء » .

وفى الحكاية وهم أشار اليه « ابن العديم » : ذلك أن أنطاكية كانت بأيدى الروم من سنة ٣٥٨ ه قبل مولد أبي العلاء ، الى أن فتحها سليمان بن قطامش سنة ٧٧٤ ه بعد موت أبي العلاء بثمانية عشر عاما . لكن هذا الوهم لا يضيع دلالتها على ما شاع وذاع من ذكاء الصبى الضرير وعجيب حفظه ، وقد عقد ابن العديم فصلا « فى ذكر ذكاء أبي العلاء وفطنته ، وسرعة حفظه وألمعيته ، وتوقد خاطره وبصيرته » أورد فيه أعاجيب ان اتهمناها بالوضع ، فلن تنهم دلالتها على رأى معاصريه فيه ، وانبهارهم بما ظهر من نجابته وقطنته وقوة حافظته ، مذ كان صبيا دون البلوغ .

وبمثل هذه الدلالة ، تشهد حكاية ذكرها بعض مؤرخيه ، وخلاصتها أن أهل حلب سمعوا بذكائه وهو صغير ، فسافر جماعة من أكابرهم لينظروه ويمتحنوه ، فقال لهم : هل لكم فى المقافاة بالشعر ? فجعل كل واحد منهم ينشد بيتا ، وهو ينشد من حفظه بيتا على قافيته ، حتى نفد حفظهم فقال : أعجزتم أن يعمل الواحد منكم بيتا عند الحاجة اليه على القافية التى يريد ؟ قالوا : فافعل أنت ذلك ، فجعل كلما أنشده واحد منهم بيتا ، أجابه من نظمه على قافية البيت ، حتى قطعهم جميعا !

الشاست الطامح

لى الشروف الذى يطأ الثريا مع الفضل الذى بهر العبادا أفل توائب الأيام وحسدى اذا جمعت كتائبها احتشادا (سقط الزند)

من ذلك العهد المبكر ، اهتدى أبو العلاء الى سلاحه فى معركة الوجود وعرف طريقه على الدرب. وقد أرضاه أن يجد فى موهبته القذة عوضا عما فقد ، وأن يلتمسمن العلم النور الذى حصه عنه العمى مذكان فى المهد صبيا .

وفى اعتداد وعناد ، صمم على أن يتحدى محنته ، وأن يشق سبيله مع الأحياء لا يعوقه فقد البصر . وبلغ المدى فى مكابرته ، فرئى فى صباه يلعب النرد والشطرنج ويأخذ فى فنون اللهو والجد كما يفعل لداته المبصرون . ومن أقدم ما وصل الينا من أخباره ، ما رواه معاصره « أبو منصور الثعالبي » فى (تتمة اليتيمة) قال : « وكان حدثنى أبو الحسن المصيصى الشاعر وهو ممن لقيته قديما وحديثا فى مدة ثلاثين سنة . قال : لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ،

ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لى وأحسن بى اذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء » ونقلوا فى ذلك قوله :

قالوا: العمى منظر قبيح قلت: بفقددانكم يهون والله مافى الوجدود شيء تأسى على فقدده العيون

والبيتان مما لم يرو فى ديوانيه (سقط الزند ولزوم ما لا يلزم) على أن لدينا من المروى فى (السقط) من شعر شبابه ، ما يقدم الشهادة الصادقة على ما كان من بعد طموحه وعجيب مكابرته وعنف اصراره على اقتحام معركة الوجود .

وأشير هنا الى قصيدته اللامية المشهورة:

ألا في سيسيل المجد ما أنا فاعل

عفاف واقدام وحزم ونائل

وفيها يقول مفاخرا متحديا:

وقد سار ذكرى فى البلاد فمن لهم

باخفاء شمس ضــوؤها متكامل

يهم الليالي بعض ما أنا مضمر

ویثقــل رضــوی دون ما أنا حامل

وانى وان كنت الأخـــــير زمـــانه

لآت بمـــا لم تســـتطعه الأوائل وأغدو ولو أن الصـــباح صوارم

وكر من طالب أمسدي سيلقى وغيب معتفا للسلم فايناكر بفاه والمحال على بهذ كال نفيسا لوفيق ف تاميما زنادا ويظهر لي مودته مقسالاماننو ببغضو نضيرا موانقهنه طعاه عِلْمَانُو مِنْ يُكِلِّمُ مِنْ مِنْ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنْ الْحِمِ ازْدَيَادًا فَيْ اللَّهُ مِنْ أَرْجِمِ ازْدَيَادًا الشرف الذي يطي الثر ما عيس مع العلق مقاتن ي مع من موال را ما ما المنظم عين اعال من على مدى زحل وزادا الما ما ملى مدى زحل وزادا أفلي نوائب الأيام وحسدى لفي شاذا رجسول تعلى ومعين سفائن عسم الإعادا اء مكذا المنود وكأن الدنيا لا تسم للا لفرط طمورحه واعتداده بمو أهبه . وهو يلقّانا فى تلك لِلرچلة بِمن شبّابة معرضا بخصوم له لا بعرفهما، وأغلي الظن أن يكون مل بين شيان حلب العلام مهين مل ضِاقِهَا لِيهِ إِلَا أَسْتَأْمُو مِنْ مِنْ نِبَاهَةً وَشُهِرِةً } فَجَاوِلُوا الْغَضَّ مِنْ ينهي بهجاع يتاليا عابه وأبعد المخال معمله وأبعد العلاء التحداهم ببثل أتمشى القوافي تحت غير قب المانية على قو المثمر على في تعمير إله تعاطوا ممكانل وقندك افتكل فنفيظ أفنة كوا غلير الخيج البطمع وقهضغ انبحونق وماداحجتيابه كمال نبتح لللكالب خوق القمال على أنه لم يغفل مع ذاك الله للله : عما حبوله من ضلال المنطق والمنطقة المانوجا ووأف العلم على معادمون فلا المقامة قتعت فضضا أنف النجم خلافاتي . معالمهانه ولتضغف التلام المالية رويدك أيها العاوى ورائى لتخبرني: متى نطق الجميمالا أأخمسل والنباهة في لفظ ليمالفتني لاالقنف عقبل عيل المام * * بيمات حتى فين أني جامسل

وكم من طالب أمدى سيلقى يؤجج فى شعاع الشمس نارا ويظهر لى مودته مقالا فلا وأبيك ما أخشى انتقاصا لى الشرف الذى يطأ الثريا ولو ملا السهى عينيه منى أفل نوائب الأيام وحدى ولى نفس تحل بى الروابى تمد لتقبض القمرين كفا

ورائى أمام والأمام وراء بأى لسـان ذامنى متجاهل تكلم بالقول المضلل حاسـد أتمشى القوافى تحت غير لوائنا وما سلبتنا العـز قط قبيلة ولا سار فى عرض السماوة بارق

على أنه لم يغفل مع ذاك التحدى ، عما حـوله من ضـلال المقاييس واختلال الموازين وزيف القيم ، مسجلا من ذلك العهد، ادراكه لفساد العصر وهزل الدهر ، فذلك حيث يقول فى فخريته اللاممة :

ولما رأيت الجهل فى الناس فاشيا

تجاهلت حتى ظئن أنى جاهـــل

دوین مکانی السبع الشدادا ویقدح فی تلهبها زنادا ویبغضنی ضمیرا واعتقادا ولا وأبیك ما أرجو ازدیادا مع الفضل الذی بهر العبادا أبر علی مدی زحل وزادا ونابی أن تحلل بی الوهادا وتحمل کی تبذ النجم زادا

اذا أنا لم تكبرنى الكبراء على" ، وخفق الريح فى "ثناء وكل كلام الحاسدين هراء ونحن على قوالها أمراء ولا بات مناسا فيهم أسراء وليس له من قومنا خضراء

فواعجبا كم يدعى الفضل ناقص

ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل

اذا وصف الطائي بالبخل مادر

وعير قسآ بالفهاهة باقل

وقال السهى للشمس أنت خفية

وفاخرت الشهب الحصى والجنادل

فيا موت زر ان الحياة رخيصة

ويا نفس جِدى ان دهرك هازل

* * *

وبدا أن القدر أملى له حينا ، فمضى فى شبيبته مل الزهو والطسوح ، وواتنه شاعريته فلم يدع غرضا من أغراض الشعر المعروفة الى عصره الا نظم فيه ، على مذهب الفحول السابقين : مدح لغير تكسب ، وهنأ بالعروس والولد ، ورثى وهجا ، وتغزل وافتخر ، على تفاوت فى مدى العناية بكل ذاك . واتصل بالحياة العامة عن قرب ، فشغل بالمعارك الدائرة بين العرب والروم ، وقال فيها قصائد حماسية ، مطولة رنانة ، وعزف للأبطال أناشيد النصر :

وجاعل غابه الأسل الطوالا تمكن فى قلوبهم النبالا تجد الى رقابهم انسلالا سقاها من صوارمه سجالا وتكفيه مهابته النزالا لقلنا أظهر الكمد انتحالا

مكلف خيله قنص الأعادى تكاد قسيه من غسير رام تكاد سيوفه من غير سكل الذا سقت السماء الأرض سحبا ويضحى والحديد عليه شاك ولولا ما بسيفك من نصول

يذيب الرعب منه كل عضب مغلوالا بالغفاد يهماي كه البجمالة والمقالة المعتالة المتناللية المتناللية المتنالة المتنا

وقال السمى المسمس أنت خفي قب عنال المسلم المال وقال السمى المسمس أنت خفية المسمون والمسلم والمسلم والمسلم الموام المسلم المالية المحال المحال المحال وحادم المحال المحال المحال وحادم المحال ا

ولم يجلبوها من ورا ملطيب شعبين الفيلا وخيسام ولم يجلبوها من ورا ملطيب قيم المسام المسا

والطورة المالية المناورة المالية المناورة المنا

باول من آخنی علیــه حـِـــام

فلما تجلى الأمر قالوا تمنيا

ألا ليت أنا فى التراب رمام

وراموا التي كانت لهم واليهم

وقد صعبت حال وعز مرام

وظنــوك من يطفىء البرد نارَّه

اذا طلعت عند الغروب جهـــام

وألك تثنيها قبالة ﴿ جلق ﴾

متى لاح برق واستقل غمـــام

وقالوا: شهور ينقضين بغروة

وما علموا أن القفول حرام!

* * *

ولدينا كذلك من شعره فى مرحلة الشباب ، ما يشهد بأنه كان يسرف فى أخذ نفسه بالتفتح للدنيا والاقبال على الحياة ، ويفرض عليها أن تأخذ فى فنون اللهو والطرب ، الى جائب ما تعلقت به من فنون الجد وما كان يستهويها من طلب العلم والمجد .

ففى سقط الزند — ديوانه الأول — نسمعه يشدو بذكريات لهو ، ويصف احدى لياليه قائلا :

رب ليسل كأنه الصبح في الحد

ن وان كان أســود الطيلسان

قد ركضنا فيه الى اللهــوحتى

وقف النجم وقفية الحيران

وكأنى ما قلت والبدر طفــــل

وشباب الظــلام فى العنفوان :

نج عليهـــا قلائد من جــــان

هرب النوم من جفونی فیهــــا

هربُ الأمن من فؤاد الجبــــان

فهما للوداع معتنقـــان

وسهيل كوجنــة الحب فى اللو

ن ، وقلب المحب فى الخفقـــان

يسرع اللمح في احمرار كما تسر

ع في اللمح مقسلة الغضبان

تم شاب الدجي فخاف من الهج

ر فعطى المشيب بالزعفـــران

ولا يخطئنا فيها حس التحدى ، بهذه الصور المرئية التى لا سبيل لمثله الى ادراكها بالبصر المغلق ، كما لا يخطئنا فيها شعوره المرهف بسواد الظلمة فى أسود الطيلسان ، وعروس من الزنج ، وعنفوان شباب الظالمة فى علم الجدرى الثوب المصبوغ الأحمر الذى وعاه منذ ألبسوه فى علمة الجدرى الثوب المصبوغ بالزعفران .

وتكاد هـذه الملاحظ ، تميز ما فى ديوانه من شعر الوصف ، وصور التثمييه والاستعارة .

وماذا عن الحب ?

فى (سقط الزند) نسمعه يغنى للحب ، ويشدو بغزليات تذوب رقة وشجوا ووجدا ، ومنها ما يستأثر بالقصائد كاملات .

ولا نعلم من أخباره ، ما ينم عن حبه لامرأة ما ، وليس فى آثاره اشارة من قرب أو بعد الى أنه عانى التجريبة فى الواقع المادى . ونقول مع ذلك ، ان شعره فى الغيزل معبر عن معاناة وجدانية صادقة لظمأ الى الحب ، وقد أعوزه المحبوب ففاضت أشواقه تنفيسا عما يكابد من ظمأ ولهفة ، وأنقل من شعره فى سقط الزند:

أسالت أتي الدمع فوق أسيل

ومالت لظل بالعراق ظليل

أيا جارة البيت المنع أهلله

غدوت ومن لي عندكم بمقيل

لغیری زکاۃ من جیمال وان تکن

زكاة جسال فاذكرى ابن سبيل

وأرسلت طيف خان لما بعثت

فلا تثقى من بعــده برســـول

أسرت أخانا بالخداع وانه

يعد اذا اشتد الوغى بقبيل

فان تطلقیه تملکی شـکر قومه

وان تقتليم تؤخذي بقتيمل

وان عاش لاقی ذلة ، واختیاره

وفاة عزيز لا حياة ذليل وكيف يجر الجيش يطلب غارة

أسير" بمجرور الذيول كحيــل

* * *

ان كان طيفك بربًا في الذي زعما

فان قومك ما بروا لهم قســـما آلى أميرك لا يسرى الخيال لنا

اذا هجعنا 6 فقد أسرى وما علما

وكم تمنت رجال فيك مغضبة

أن يبصروه فلم يكظهر لهم سقما

نشوف من آل هند بارقا أرجا

كأنما فضَّ عن مسك وما ختما

اذا أطهل على أبيسات بادية

قسام الولائد يستقبسنه ضرما

* * *

ان كنت مدعيـــا مــودة زينب

فاسكب دموعك ياغمام ونسكب

فمن الغمائم لو علمت غمامة

بالجفن بارزت القلوب وانمسا

بالنصل يبرز كل شهم محرب

الا الوهم والا التشبث بطيف ينهج أب إلما يهدُلمنظل في خالم عليق على بعيتكات إلى لحيث له خالم عليق على المعتبدة :

ومتى خلوت بها من آجلك لم أرع ليست بيث ال محالة به لي المناسسة معالى من مرقب المناسسة معالى من مرقب ورسول أحلام اليك بعثت عبل بي وغلا على عالى عالى عالى عالى عالى الما عالى عالى الما الله المعالى على يأس بنجح المطلب وكان حبك قال : حظك في السرى خلاا على على يأس بنجح المطلب وكان حبك قال : حظك في السرى خلاا على الما المده عمله على معموم من الحب الما المده عمله على معموم من الحب الموروقي خيال لا سبيل له با الما المده عمله المده المعموم من الحب الموروقي خيال لا سبيل له با الما المده المعموم من الحب الموروقي خيال لا سبيل له با المناسب الموروقي خيال لا سبيل له با المناسبة المناسب

الى سواها ، وانه ليعلم أن حظه في السري وأحلام الخيال ورؤى المناع في السري وأحلام الخيال ورؤى المناع في ال

وليس صحيحا أن أبا العلاء بخيما عالج من شعر الغزل ، كان حال على ما وهم واهمون - يتكلف النظم فى كل أغراض الشعر المعرفة الى عصره ، اعلانا عن اقتداره على الصنعة ، دون أن يكون لغزله حظ من الصدق الوجداني .

كلا .. فليس أبو العلاء بالذى يزيف وجدانه أو يقول مالا يجد ، وانما قال ما قال عن معاناة صادقة لحرمان قاس ، ولم يكذبنا القول بل كشف عن وطأة احساسه باللهفة الى ما لا يدرك ولا ينال الا بالخيال ، ورفع نجواه الى حبيبة لاحظ له منها

الا الوهم ⁴ والا التشبث بطيف يلم بالمدنف المشوق ، ثم يسرى بعيدا الى حيث لا مطمع ولا رجاء :

يا غـرة الحي الكثير شــياته

ما تأمرين لمدنف متمسائل

لاقاك في العام الذي ولتي فلم

يسألك الا قبلة في قابل

ان البخيــل اذا يمد له المدى

في الجود ، هان عليه وعد السائل

وسألت ما بين العقيق الى الغضا

فجزعت من أمد النوى المتطاول

جهـــل" بمثلك أن يزور بلادنا

يختـــال بين أســــــاور وخلاخل

* * *

منك الصدود ومنى بالصدود رضى

من ذا على." بهذا فى هواك قضى

بىمنك مالو غدا بالشمس ماطلعت

من الكاّبة ، أو بالبرق ما ومضا

جربت دهری وأهلیــه فما ترکت

لى التجارب فى ود امرىء غرضا

اذا الفتى ذم عيشــا في شبيبته

ماذا يقول اذا عصر الشباب مضي

ولا نرفض أن تكون هذه الغزليات من الشعر الرمزى الذى يخفى وراء ظاهر لفظه دلالة مستورة على أمنيات تعلق بها أبو العلاء فى شبابه ، كأن تكون هذه الحبيبة رمزا الى الدنيا ، أو الى المجد ، أو الى نعمة البصر التي حرم منها ، أو ... أو ...

لكن تبقى مع هذا كله دلالة ايثاره لهـــذا الأسلوب ، على ما كان يقاسى من مواجد الحب . وهى دلالة لا تكشف عنهــا قصائده المفردة للغزل فقط ، بل تشاركها فيها مطالع قصائد أخرى فى غير الغزل ، كاستهلاكه لبعض مدائحه فى ديوانه الأول ، بمثل قــه له :

يا ساهر البرق أيقظ راقد السمر

لعل بالجـزع أعوانا على السهر

ويا أسيرة حجليها أرى سفها

حمل الحلى" لمن أعيا على النظر

ما سرت الا وطيف منك يتبعني

سرًى أمامي ٥ وتأويبا على أثرى

لو حطّ رحلي فوق النجم رافعه

ألفيت ثم خيالا منك منتظرى

يود أن ظلام الليـــل دام له

وزيد فيه سواد القلبوالبصر!

واستهلاله قصيدة اخوانية ، بعث بها الى الشريف موسى ابن اسحاقي ، بقوله :

ولا نرفض أن تكون هذه الغرلتيليك لحق الدهم المرحق الخكال إيالحيله المعافظ وهي الأن المحتورة على أمنيات تعلق بها أبو العلاء فى شبابه ، كأن تكون لعن خلاصية غنيله زلة تلل للخذ أمم أل للي قاجلنه أو النيج نعمة عالم التي حرم منها أو .. أو ...

لكن تبقى مع هذا كله دلالة اليظلة مسلم محدًا والأسلوتها علمعالى المعلى وهى دلالة لا تكشف عنه سالم قصائده المفردة الغزل فقط الله الم المثلا في فيلا مخالي قطائع المخافة في الغزلمتية كاستهلاكه المعضي مدائحه في ديوانه الأول ، بمثل قسوله:

أقام اله والمحامولة عيرارة بطرا ومعالساك

مساه ولوعنة أالجنداني الما

المنظم المنطرة المنطرة المنطرة المنطورة المنطور

المع المسلم المعلق المع المع المع المعلم المسلم المعلم المسلم المعلم المسلم المعلم المسلم المعلم ال

الله البحد المسلمة عن الله المسلمة المسلمة المسلمة الله المسلمة المسل

ابن اسطاق ، بقوله : . . غيالنا أعليما : (٢)

الخيال ، متحديا بذلك واقعه ، وملتمسا لظمئه من سراب الوهم ريا !

واذا كنا نعجب لما سمعنا فى غزلياته من حديث مشله عن السيف والغمد والحمائل ، وعن الغارة والجيش ، والأسير الذى يعد اذا اشتد الوغى بقبيل ، فأعجب منه أن نراه قد نظم ديوانا فى « الدرعيات » — ملحقا بسقط الزند — وهى من عدة الحرب التى لا مجال له فيها بحال !

ماضيا فى ذلك ومشله على غلوائه ، ومصرا على أن يخوض معركته بكل ما استطاع ، أو تكلف ، من مكابرة وعناد ...

ومصنات كاشفيز

نلوم على تبلدها قلوبا تكابد من معيشتها جهادا (سقط الزند)

أكان أبو العلاء ، فى لطف حسبه وصفاء وجدانه وعجيب فطنته ، بحيث يجهل عقم هذه المكابرة التى تجعله يقول انه يحمد الله على العمى ، أو يقول :

وأغدو ولو أن الصباح صوارم

کلا ...

وانما كان يجلجل بهذا الادعاء رجاء التشاغل عن واقعه المر، وحمل نفسه على المقاومة والتجمل بالصبر على مالا حيلة له فيه . أو لعله كان يحاول بهذا الضجيج الصاخب ، أن يصم سمعه عن صوت فى أعماقه يؤرقه ليل نهار :

أما آن أن تكف عن هـــذا العناد العقيم والمكابرة الخائبة ? وقد عبر عنه ، دون تنبه منه ، مطلع قصيدته الحماسية فى الجهاد ضد الروم :

لقد آن أن يثنى الجموح لجام

وأن يملك الصعب الأبيّ زمام

وعبرت عنه كذلك ، نفثات حزينة أفلتت منه واشية بما كان يطوى فى أعماقه ، وومضات كاشفة عن مكتوم قهره وأساه .

وأكثر ما تلقانا هذه الومضات ، فى مراثيه التى صدرت عنه ناضحة بالمرارة والشجن واليأس ، مشل مراثيه فى أبويه — وستأتى بعد — ومرثيته فى جعفر بن على بن المهذب ، وقد كان من رفاق صباه ، مع صلة مصاهرة ربطتهما ، بزواج عمة أبى العلاء من أبى محمد بن المهذب ، وفى هذه المرثية يقول :

كان الأسى فرضا لو ان الردى

قال لنا: افدوه ، فلم نفده

يا دهر يا منجنز ايعاده ومخلف المأمول من وعسده

تستأسر العقبان في جـو"ها

وتنزل الأعصم من فنده

سبلك

أرى ذوى الفضل وأضدادهم يجمعهم

تجربة الدنيا وأفعالها حشت أخا الزهيد على زهده

ان زمانی برزایاه لی صیدنی أمرح فی قیده

لو عرف الانسان مقداره

لم يفخر المولى على عبده

أمس الذي مر" ، عملي قسربه

بعجــــز أهـــل الأرض عن رده

أضحى الذي أتجسل في سينه

مثل الذي عوجــل في مهـــــده

ولا يسالي الميت في قبره

بذمه شيع أم حمده

والواحــــد المفرد في حتفــــه

كالحاشـــد المكثر من حشـــده

وحالة الباكي لآبائه

كحالة الباكى على ولده

ما رغبـــة الحيّ بأبنــــائه

عسا جنى الموت على جـــد"ه

تدعو بطول العمسر أفواهنا

لمن تنـــاهـى القلب فى وده

يسر ان مثد" بقاء له

وكل ما يكره في مدّه!

ومرثبته المشهورة فى الفقيه القاضى أبى حمزة التنوخى ، وهو من بنى عمومته ورفاق صباه :

غير مجد في ملتي واعتقـــادي

نوح باك ولا ترنم شــــاد

وكتب الى بعض اخوانه ، ميتلها عن فيهود عن بصوت البشنير للهي كل الأقاقة س عن^{ال} الله أم غن^{ال} يا راعي الود السلك أفعت أبكت تلكم الحم acted by the مَنْ عَلَى عَلَى الْمُنْ الْمُنْ عَلَى الْقَبُورِ مِن عَهَدُ عَادِ خفف الوطء ما أظن أديم متقرفسا فوقها . وكأنني من تحتيما على من هذه الأجساد فالم من هذه الأجساد فدرت بي الدين وكل مصاحب ها المعام العمام العمام العمام العمام العمام الم المنظا بعد التبعالية هو ان الآباء والأجسداد سر ان اسطعت في الهـ واء رويدة من في العرب المناه عنه المعالمة العرب المناه عنه العالم نسيقه به من سيخة لله يتقلا اختيالا على رفات العباد رب لحد قد صار لحدا مراراً الله Y de likewide og ودفين على بقايا دفين الحاسة على بقايا دفين الماك من تزاحم الأضداد نامان الأزمان في حللت في وادى الهمود وحبتها و الآياد ا الحاة فما * أعب الا من راغب في ازدياد كنت بحل الصكابا فلما الراق مثا اليين وافقت رأيه في اللهواد و كالمنظ الم الله عند شيل الا فالله طوق واستعاد ن الذه علم الألك فالنظب الخيار المنان تفقيقين عمد قريب المناز والانتجار وغية أد ذلك الفن ، ثم لما عدت أصغى من جدياء الحيمة وت أو العلام أو الموانه لن المؤن النهد المراسة كت أنا على خطأ ، حين فاتنا لمح وكتب الى بعض اخوانه ، معتذرا عن قعوده عن تعزيت فى فقيد من أهله :

يا راعى الود الـذى أفعـــاله

تغنى بظاهر أمرها عن نعتها

لو كنت حيًا ما قطعتك فاعتذر

عنى اليك لخلة بأمنتها

فالأرض تعملم أنني متصرف

من فوقها ، وكأننى من تحتهـــا

غدرت بي الدنيا وكل مصاحب

صاحبته غدر الشمال بأختهــــا

شنغيفت بوامقها الحريص وأظهرت

مقتى لما أظهـــرته من مقتهــــا

لا بد للحسناء من ذام ولا

ذام لنفسي غير سيىء بختها

ولقد شركتك فى أساك مشاطرا

وحللت فى وادى الهموم وخبتها

* * *

ومنا من كان يظن أن مراثيه تنفرد بهذا الايقاع الحزين ، وأن غيرها من شعر شبابه ، كله طموح واستعلاء ، وزهو واعتداد . وأعترف بأننى كنت ، الى عهد قريب ، من بين الذين غلب عليهم ذلك الظن ، ثم لما عدت أصغى من جديد الى صوت أبى العلاء فى ديوانه (سقط الزند) أدركت أننا كنا على خطأ ، حين فاتنا لمح

الومضات الكاشفة عن الجرح الغائر فى أعماق وجدانه ، لا فى مراثيه فحسب ، ولكن كذلك فى مدائحه وحماسياته ، وغزلياته وفخرياته ، وأكاد أقول فى كل قصيدة من شعر شبابه .

وانما شغلنا عنها ببريق طموحه الساطع ، وتاهت منا فى ضجيج مكابرته واستعلائه ، وعذرنا هنا أن أبا العلاء نفسه ، حاول صادقا مخلصا ، أن يشغل بهذا الضجيج عن مكابدته النفسية لدواعى اليأس والقنوط ، وهواجس الخيبة والقهر ، لولا أن أفلتت من أعماقه ، من حيث يدرى ولا يدرى . وقد مرت بك أبيات من الفخرية ، التي استهلها بالسؤال العجيب : أفوق البدر يوضع لى مهاد

أم الجوزاء تحت يدى وساد!

فاسمع اذن مافيها من حسرة على ظمئه وحرمانه ، لا يخفيها أن ردَّ هــــذا الحرمان الى أن موضعه فوق السـحاب ، حيث لا سبيل الى قطرة من رى :

كأنى حيث ينشا الدجن تحتى

فها أنا لا أمطل ولا أمجاد

أأخمل والنباهة في لفظ

وأقتر والقناعة لى عتـــاد

وألقى المــوت لم تخد المطـــايا

بحاجاتي ۴ ولم تجف الجياد!

وأبياته التي باهي فيها بشرفه الذي يطأ الثريا وفضله الذي

بغر كالعباطة اوتجعلين بألمه ينفان نوائمجا الإياج الوجهد غلفة الجلعت اكتفائبها مراثيه فحسب و وابكن لم كالمنتف كالدائعة ولمختلط عاق ذ لا كانطيقا وفض ياته ، وأكاد أقول في كل قطعالمة من تشغل ثبيلة المقنعا ري اعار واننه فلغاتيك تنام يبنوني فع الساطع : وتاهت منا في ضجيج مكابرته واستعارته ، وعنى عنا بالله والله الاستعنا المه همالك عن حيال المن بهذا الضبي عن مكابلة النفسية لدواعي اليأس والقنوطا بعلق وهوا مجلل بالخيبة لموالقه وعلا اعلا أنع ولا يدرى . وقد مرت بك أبيات من الفخرية ، التلم لمض للعلطة سنومال لللغليل : اغا المامي البدر وسي نا طفاؤ

عاليم واعدندي من أوسادلله

اعام السم أذن مافيها من حسرة على فِلمنه وحرمانه ، لا يخفيه

واليقة فتكر الارض القت عادلا وقصيدته النونية الله الله السمعة فيها يصف ليلة لهو كانها عروس من الزنج ؛ مطلعها هذا الجُؤْفار الخُونان : قَاهُ النَّالَ الْحُونَانِ عَلَمْ اللَّهُ اللَّهُ ال وأقلمها والقناعة فناه عتب الله

فنيت والطنعة الام تيس المانية كم الرديالالالمال مان بقليل نا دأياته المانى باممنيها بتنكف ألفى يض الثريا وفضله الذي

وفيها يقول معتذرا الى الشريف أبى ابراهيم موسى:

فاقتنع بالروى." والوزن منى

فهممومي ثقيلة الأوزان

من صروف ملكن فكرى ونطقى

فهي قيد الفؤاد قيد اللسان

ولاميته المشهورة فى الفخر ، لم تخل من كلمات تنم عما حاول أن يطوى من هموم ، تحت ركام التبلد واللامبالاة :

يهم الليالي بعض ما أنا مضمر

ویثقل رضوی دون ما أنا حامل

وطال اعترافى بالزمان وأهله

فلست أبالي من تغول الغوائل

فلو بان عضدی ما تأسف منكبي

ولو مات زندى ما بكته الأنامل

ويستهل أخرى من قصائد التحدى ، بهذا الأنين الجريح:

ذلت لما تصنع أيامنا نفوسنا تلك الأبيات تجنى خمور الهم مالم تكن تجنى الخمور العنبيات

ويروون أنه سئل اجازة هذا البيت :

شغلى ببعدى عنك يشغلنى ويصدنى عن كل أشغالى فصدرت عنه هنذه الأبيات ، مشحونة بهواجس اليأس ، صارخة بلهاث الظمأ : ما يوم وصلك وهــو أقصر من

نفس ، بأطــول عيشـــــة غالى

علقت حبال الشمس منك يدى

وجـــديدها فى الضعف كالبـــالى

وطلبت عندك راحـــة ، وعلى

قدر اعتقادی کان ادلالی

وظننت فی البلوی منـــای ولم

تكن المنية لى على بال

ما زلت أبلغ ما هممت به

حتى هممت بكوكب عال

ان فات سلوان الحياة فكل الناس بعد مماته سيال

. . . 1*

فاخترتهما وعصيت عذءالي

يضحى الرضاب لأهلها بدلا

من بارد فى الخلد سلسال

أنى بنار جهنم صــــــال

قلبى أعاتب فهو يلزمني

* * *

واذن فلم يكن أبو العلاء فى معركته الأولى ، قد كذبته نفسه أو أخطأه حس ما تكابد من هم وقهر .

كما لم تكن أشعاره فى التحدى والمكابرة ، من الزيف الوجداني ...

وانما الذى يشهد به ديوانه الأول ، أن الشاب الموهوب الطامح حاول ما وسعه الجهد أن يقاوم الاستسلام الى واقعه ، والرضوخ لما كبلته به محنته من قيود تشل انطلاقه وتلجم طموحه دون أن يخونه فى هذه المحاولة وعى ذاته . وبقدر ما كان صادقا فى شعره المعبر عن رغبته المخلصة فى الاستعلاء واصراره العنيد على المكابرة والتحدى ، كان صادقا كل الصدق فى تلك الفلتات الكاشفة عن مطوى أشجانه ، الصادرة عن فؤاد يجرع خمور الهموم:

نلوم على تبلدها قلوبا

تكابد من معيشتها جهادا!

موست الأب

كأن دعاء الموت باسمك نكزة

فرت کبدی ، والسم ینفثفاًذنی (سقط الزند)

مضى الحائر فى معركته منتظرا ما تأتى به الأيام . وجاءته الأيام بما انتظر ، من حيث يدرى ولا يدرى :

لقد توقع بحسه المرهف أن فى جعبتها سهاما أخرى ، لكنــه لم يكن يدرى فى أى موضع يقع السهم هذه المرة .

حتى مات أبوه عبد الله

فنفذت الطعنة الى صميم كيانه ٬ وفقد الشاب الضرير أبا رحيما ومعلما صديقا ، وحرم بفقده من كان يعينه على محنته ، ويمنحه زادا من طاقة المقاومة والاحتمال .

* * *

ومتى مات أبوه ? وأين ?

اختلفت الراوايات فى ذلك اختلافا بعيدا ، وهى فى جملتها ترجع اما الى قول « يا قوت الحموى » فى معجم الأدباء: « أنه توفى بحمص سنة ٣٧٧ هـ »

أو الى قول ابن العديم فى (الانصاف والتحرى): « وتوفى أبو محمد عبد اللهبن سليمان والد أبى العلاء بمعرة النعمان سنة خمس وتسعين وثلاثمائة »

وبين الروايتين فرق شاسع ، لا يهون أن نمر به دون أن نبذل محاولة للاهتداء فيه الى ما نظمئن به الى أننا لم نققد الشعاع المضىء لحياة أبى العلاء ، فى تلك المرحلة الدقيقة من عمره ، وهو يخوض معركته الأولى مع الأيام ، مضغوطا بين طموح جامح وواقع مثبط مخذل ...

ومصنفو كتاب (تعريف القدماء بأبى العادء) لم يفتهم أن يلحظوا بعد ما بين الروايتين ، لكنهم فيما يبدو اكتفوا بترجيح رواية « ياقوت » حيث نقلوها بغير توقف أو تعليق ، فلما وصلوا الى رواية « ابن العديم » لم يدعوها تمر كسابقتها ، بل علقوا عليها في الهامش بما نصه :

« كذا ، وانما توفى سنة ٣٧٧ بحمص كما نص ياقوت » دون أن يتجشموا مشقة الفحص لكلتا الروايتين

ودون أن يشيروا من قريب أو بعيد الى وجه ما ⁴ لهذا الترجيح الذى ساقوه بصيغة القصر الحاسمة .

ويشق علينا أن يحسم مثل ذلك الخلاف بهذه البساطة ، مع ما نعلمه من تخصص « ابن العديم » فى تاريخ حلب وأعيانها ، وتفرغه لتصنيف كتاب جامع مفرد عن أبى العلاء وأسرته ، مما يجعله أولى بالثقة من « ياقوت » الذى كان اهتمامه بأبى العلاء »

محدودا بالقدر الذي تنسع له ترجمته للحشد الكاثر من الأدباء الذين عرف بهم في معجمه الكبير .

ثم ان « ياقوت » فيما روى من أخبار أبي العلاء وأسرته » يرسل مروياته غالبا بلا اسناد ، على حين نرى « ابن العديم » يحرص على ذكر أسانيده . وأكثر من روى عنهم ، من بني سليمان ، أو من بين الذين لقوا تلاميذ أبي العلاء ومعاصريه . كما يحرص على تحديد طرق الرواية ، قراءة أو سماعا أو اجازة أو مكاتبة .

ونقول مع هذا ، ان تخصص « ابن العديم » وسلامة منهجه لا يكفيان لترجيح روايته فى وفاة والد أبى العلاء ، مالم تؤيدها قرائن وشواهد يهدى اليها الفحص النقدى للروايتين .

فعلى رواية ياقوت ، يكون أبو العلاء قد امتحن باليتم وهو غلام فى الرابعة عشرة من عمره ، ومؤرخوه قد أجمعوا على أنه بدأ يقول الشعر وهو ابن احدى عشرة أو اثنتى عشرة سنة . فلننظر اذن فى مرثيت لأبيه ، لنرى ما اذا كانت تجربة غلام مراهق ، لم يبدأ نظم الشعر الا قبل موت أبيه بعامين أو ثلاثة ، على أقصى الأجلين ؟

تقمت الرضى حتى على ضاحك المزن

فلا جادني الا عبوس من الدجن

فلیت فمی ان شهام سنی تبسما

فم الطعنة النجلاء تدمى بلا سن

أبى حكمت فيه الليـــالى ولم تزل رمـاح المنـايا قادرات على الطعن

مضى طاهر الجثمانوالنفسوالكرى وسهد المنى والجيب والذيلوالردن

فياليت شميعرى هل يخف وقاره اذا صار أحمد في القمامة كالعهن

وهـــل يرد الحوض الروى مبادرا مع الناس أم يأبي الزحام فيستأني

حبِجا زاده من جسراة وسسماحة وبعض الحجا داع الى البخل والجبن

* * *

على أم دفر غضبة الله انها الله على أم دفر غضبة الله الهام

كعاب : دجاها فرعهـــا ، ونهارها محيا لها قامت له الشمس بالحسن

رآها سليل الطين والشيب شـامل لهـا بالثريا والســـماكين والوزن

زمان ً تولت وأد حواء بنتها وكم وأدت فى اثر حواء من قرن كأن بنيها يولدون وما لهـــا

حليل » فتخشى العار ان سمحت بابن

جهلنا فلم نعلم على الحرص ماالذي

يراد بنــا ، والعــــــلم لله ذي المن

اذا غيب المسرء استسر حسديثه

ولم تخبر الأفكار عنــــه بما يغنى

تضل العقول الهبرزيات رشيدها

ولم يسلم الرأى القوى من الأفن

وقد كان أرباب الفصياحة كلما

رأوا حسنا عدوه من صنعة الجن

* * *

وجدنا أذى الدنيا لذبذا كأنما

جنى النحل أصناف الشقاء الذي تجني

فما رغبت في الموت كند ر" مسيرها

الى الورد خمس" ، ثم يشربن من أجن

يصــادفن صقرا كل يوم وليـلةً

ويلقين شرا من مخـــالبه الحُجئن

ولا قلقات الليل باتت كأنها

من الأين والادلاج بعضالقنا اللدن

ضربن مكيعسا بالسنابك أربعا

الى الماء ٥ لا يقدرن منه على مُعنن

وما استعذبته روح مسوسي وآدم

وقد و عُرِدا من بعده جنتي عدن

* * *

أمولى القوافى كم أراك انقيادها لك الفصحاء العثر ب كالعجم اللكن

هنيئا لك البيت الجديد موسدا يمينك فيه بالسمعادة واليمن

مجــــاور سَــكــُـن فى ديار بعيــدة من الحى ، ســقيا للديار وللسكن

طلبت من جهینی عنهم ولن تخبرینی یا جهین سوی الظن ولن تخبرینی یا جهین سوی الظن

فان تعهدینی لا أزال مسائلا: فانی لم أعط اليقين فأستغنی

وان لم يكن للفضـــل ثكم مــزية على الطويل من الغين

* * *

أمــر ُ بربع كنت ُ فيـــه كأنمـا أمر من الاكرام بالحجـــر والركن

واجب لال مغنى اك اجتهاد مقصر

اذا السيف أودى، فالعفاء علىالجفن

لقد مسخت قلبى وفاتك طائرا فأقسم ألا يستقر على وكن يقضى بقدايا عيشه ، وجناحه حثيث الدواعى فى الاقامة والظعن كأن دعاء الموت باسمك نكرة

فرت جسدى والسم ينفث فى أذنى

ضعفت عن الاصباح والليل ذاهب

كما فني المصباح في آخـــر الوهن

وما أكثر المثنى عليك ديانة

لو ان حمـــاما كان يكنيه من يـُـثنى

يوافيك من ربالعلا الصدق بالرضى

بشيراً ، وتلقياك الأمانة بالأمن

ويتكنى شميد المرء غيرك هيبة

وبقيا ، وان يُسال شهيدك لا يكنى

يصرح بقول المسك دونك نفحة

وفعــل كأمواه الجنــــان بلا أسن

يد" يدت الحسنى ، وأنفاس ربها

تقى ، ولسـان لا يحرك باللسن

فليتك في جفني مواري نزاهة

بنتك السجايا عن حشاىوعنضبني

ولو أودعوك الجو خفنا مصيفه

ومشتاه ، وازداد الضنين من الضن

فيا قبر واه من ترابك لينــــا

عليــــه ، وآه من جنادلك الخشن

فهل أنت ان ناديت ومسك سامع

نداء أبنك المفجوع بل عبـــدك القن

سأبكى اذا غنى ابن ورقاء بهجة

وان كان ما يعنيه ضـــد الذي أعنى

ونادبة فى مسمعى كل قينة

تغرد باللحن البرىء عن اللحن

وأحمل فيك الحزن حيا فان أمت

وألقك لم أسلك طريقا الى الحــزن

وبمسدك لا يهوى الفؤاد مسرة

وان خان فی وصل السرور فلا یهنی

* * *

كلا!

ليس هذا حديث غلام مراهق 4 ابن أربع عشرة سنة ! ولا هو شعر مبتدىء 4 فى مستهل تجربته الشعرية ..

وانما هو صوت رجل ناضج فلا الدنيا وعرف حكم الليالي وأثخنته الجراح ، وأطال التفكير في محنة وجود مصيره العدم ، وأرهقته الحيرة في التماس اليقين عما بعد الموت!

صوت نحس فية نبرات واضحة من صوت أبى العلاء الذى سوف نسمعه بعد بضع سنوات فى عزلته ، رهين محبسيه ، يملى (الفصول والغايات) وديوان (لزوم ما لا يلزم) ، وآثاره الأخرى فى الطور الثانى من حياته .

الا أن يقال ان « أبا العلاء » رثى أباه بأخرة ، بعد موته

بسنين ، وهـو فرض مستبعد بشـاهد من نص المرثية ، حيث الحديث عن احتضار الفقيد والليل ذاهب ، وعن وقع النعى على الابن المفجوع ، والسؤال اليائس هل يسمع الراحل النداء ? : كأن دعـاء الموت باسـمك نكزة

فرت جسدى والسم ينفث فى أذنى ضعفت عن الاصباح والليل ذاهب

كما فنى المصاح فى آخــر الوهن

فهل أنت ان ناديت رمسك سامع

نداء ابنك المفجّوع بل عبدك القن ومثل ذلك الحديث لا يكون ، الا واللوعة حارة ، والجرح دام ، والعهد بالمصاب جدّ قريب ...

* * *

ولا يتم جلاء الموقف ، دون أن نفحص رواية « ياقوت » محاولين التماس وجه الشبهة فى قونه ان والد أبى العلاء توفى بحمص سنة ٣٧٧ ه .

ففى هذه السنة ، توفى أبو الحسن سليمان جد أبى العلاء . وفى حمص كانت وفاته وهو على قضائها ، ودفن ظاهر باب الرستن ، كما نص على ذلك « ابن العديم » .

فلعل الأمر تشابه على « ياقوت » لوهم آخر وقع فيه ، حين ذكر أن جد أبى العلاء « ولى القضاء بحمص وبها مات فى سنة ٢٩٠ هـ » وهــو وهم تنبه اليه مصـنفو (تعريف القــدماء بأبى العلاء) وقابلوه على ما فى (الخريدة) لابن العمـاد ، من

ولاية جد جد أبى العلاء للقضاء فى سنة ٢٩٠ هـ . واسم الجد أيضا : أبو الحسن سليمان ٤ بن أحمد بن سليمان بن داود أبن المطهر .

وبقى أن نقابله على ما فى (الانصاف) لابن العديم ، من أن بعض الناس قالوا ان جد الجد ونى قضاء المعرة فى سنة ٢٩٠ هـ، وبعضهم يقول ان الذى تولى القضاء سنة ٢٩٠ هو ابنه أبو بكر محمد ، جد والد أبى العلاء .

ثم نضيف الى ذلك ما فى (الانصاف) أيضا ، من أن أبا العلاء أخذ الحديث عن أبيه وجده سليمان بن محمد ، فكيف يأخذه عمن « مات فى حدود الثلاثمائة » قبل مولده بثلاث وستين سنة ?

* * *

من هذا كله نظمئن الى قول ابن العديم ، بوفاة عبد الله ابن سليمان سنة ٣٩٥ ه. وكانت وفاته بمعرة النعمان ، بشاهد من نص المرثية ، عن جوار أبيه لسكان ديار بعيدة من الحى ، يعنى سكان القبور ، وليس أبعد منهم دارا وان د فنوا فى الحى و أقاموا ..

احثدى الراحتين

تخیرت ٔ جهدی لو ملکت خیـــارا

مات أبوه ، وهو فى الثانية والثلاثين من عمره ، قد استنفد طاقته فى تحدى محنته والاستعلاء عليها ، وأرهقه التمزق بين شد الطموح وعجز الوسيلة والأداة ، فبدأ يفيق بالصدمة من أكاذيب المنى وسكرة الوهم ، ويتهيأ للتطور الخطير الذى جد على حياته بعد ذلك ببضع سنين .

ولعله بدأ عقب موت أبيه ، يفكر فى أن يلقى سلاحه ويلزم موضعه ويقر بأن العمى نقسة لا نعسة ، لكنه تردد فى الأمر ليبلو نفسه ، وقد أشفق من أن تكون رغبته فى الاستسلام طارئة بفعل الصدمة ، وأن يخونه وهم الراحة بالياس كما خانه وهم الراحة بالأمل .

كان يخشى أن تكون فى النفس بقية من أثر مصاولته التى طالت ، وأن يظل فى مسمعه صدى من شعره الأول الذى مضى فيه على غلوائه يحاول أن يقنع نفسه ، قبل أن يقنع سواه ، بأنه

مستطيع أن يرقى الى ما فوق النجم ، حيث لا يبلغ شأوه منافس، أو يصل اليه نباح حاسد .

ولقد حاول قدر استطاعته أن يتجلد للصدمة الجديدة ، وأن يطوى جرحها فى أعماقه المثخنة بالجراح ، كيما يستأنف صراعه مع الدنيا ، فما كان من السهل أن يئد طموحه بغتة ، وأن يقهر ما لبشريته من أشواق سيظل يكابدها ما عاش !

بل ليس ببعيد ، أن تكون الصدمة الجديدة قد أرهفت وهم تجلده ، وغشيه من دوارها ما خيل اليه أنه قادر على احتمال كل ما تأتى به الدنيا من أصناف الرزايا ، وأعانه على ذلك أن أمه بقيت له ، ولديها يجد العوض عمن فقد ، ويلتمس العزاء عما لقى من عنت الأيام والليالي ...

وفى هذه الفترة من أخريات القرن الرابع ، بدأ يفكر فى الرحلة الى بغداد ، لعله يختبر طاقته على مجاهدة نفسه أو مجاهدة الدنيا . وأطال التفكير قبل أن يجمع أمره ويشد الرحال الى دار السلام ، فى أخريات عام ٣٩٨ ه.

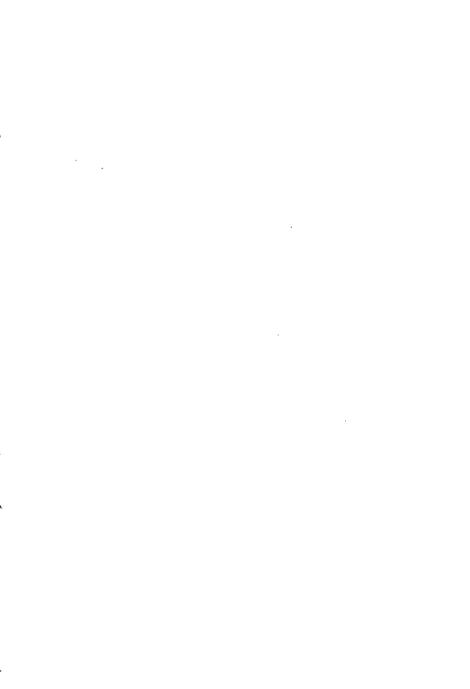
وأستأذن أمه فى السفر ، فأذنت فيه بعد أن أيقنت أنه جاد فى عزمه . وانتفض قلبه وهو يفارقها مودعا "كأنما حدثه القلب أنه فراق لا لقاء بعده .

وودع أهل المعرة ، وكلهم عشيرة وجيران .

وخلف مهد مولده ومدرج صباه ، وما من أحد يدرى ماذا يستقبل فى غده ، أو يعلم المخبوء له فى الغيب المضمر ...

الفضل الثالث

- من اخ العصن في المنهاب الذهاب الذهاب الفاصب تم العاصب تم العاصب تم العاصب المابيات المابيا



مناخ العضر

هذى بضاع النــاس معروضــة

فخالطوا العالم أو فارقوا (اللزوميات)

وفی حیاة کل أدیب — وأکاد أقول : کل انسان — حادث حاسم یغیر مجری حیاته ویحتکم فی توجیه مصیرها .

ومن قديم سمعنا أن « امرأ القيس » قال حين بلغه مصرع أبيه : اليوم خمر وغدا أمر !

أما أبو العلاء فليس فى حياته خمر ولا ثأر ، وانما الذى فيها رحلة الى بغداد ، كانت بصريح عبارته وشهادة سلوكه وأقوال مؤرخيه : الحد الفاصل بين شطرين من حياته ، انسانا وأديبا .

شطرين مختلفين ، شتان ما بينهما .

والاخباريون على كثرة من عنى منهم بالترجمة لأبى العلاء ، وعلى كثرة ما جاءوا به من أخباره وما رصدوا من آثاره ، لم

يعنوا بهذا الحادث الخطير فى حياة أديبنا الأكبر ، بل ان منهم من لم يشر اليها اطلاقا ، كأبى منصور الثعالبى والباخرزى ، وكلاهما من عصره ، والسمعانى وابن الجوزى وقسد عاشا فى القرن السادس ، قريبا من عصره .

أما الذين أشاروا اليها ، فبعضهم جاء بها خبرا عابرا في سياق الترجمة لأبي العلاء ، والتقط آخرون بعض أخبار عنها ، لا من حيث دلالتها على خطر الرحلة ، ولكن من حيث شهادتها لذكائه وحفظه ، أو صلتها بعقيدته . وجمع ابن العديم – المتوفى سنة ١٦٠ هـ – ما تفرق من تلك الأخبار والمرويات ، في فصل من كتاب (الانصاف والتحرى) عنوانه : « في ذكر رحلته الي بغداد وعوده الى معرة النعمان ، وانقطاعه عن الناس وتسمية تفسيه وهين المحبسين – رحمه الله » وليس في الفصل محاولة ما ،

على أنهم أجمعوا على أن عزلته الصارمة بدأت برجـوعه من بغداد الى معرة النعمان ، لا أعرف أحدا منهم خالف على ذلك أو تردد فيه .

كما أجمعوا على أن (سقط الزند) هو ديوان شعره قبل الرحلة 4 أو كما قال «ياقوت »: « فيه شعر قيل فى الدهر الأول، وأبياته ثلاثة آلاف بيت »

فاذا أخذنا (السقط) أثرا فنيا لأبى العلاء معبرا عن وجدانه فى الشطر الأول من حياته ، بدا لنا منه شخص غير الذى عرفناه فى (الفصول والغايات ، ولزوم ما لا يلزم ، ورسالة الغفران ، وملقى

السبيل ، ورسالة الملائكة) وغيرها من الآثار التي ثبت أنه أملاها في الشطر الثاني من حياته ...

ومن مقابلة النصوص ، نستطيع أن نستبين أثر الرحلة البغدادية التي أحدثت ذلك التحول الحاسم في حياته انسانا ، وفنه أديبا .

وبقدر ما لها من خطير الأثر نلتفت اليها ، ونحاول ما وسعنا الجهد أن نعرف كل ما حف بها من ظروف ، وأن نستخلص دلالة كل خبر مروى عنها ، ثم نلوذ آخر الأمر بأبي العلاء فيما لدينا من آثاره ، نسأله أن يفسر لنا بكلماته الصادقة سر هذه الرحلة ، وأن يقول الحق فيما ذكره مؤرخوه عنها وما أهملوه ..

* * *

ولا بد هنا من استطراد يسير ، نطل به على ذلك العالم الذى خرج اليه أبو العلاء ، ونعرف المناخ الذى تنفس فيه ، ونستخلص صورة عامة لبغداد فى عصره .

على أنا لا نستطيع أن نتحدث عن بغداد بمعزل عن الحياة العامة للدولة الاسلامية التي كانت بغداد عاصمة لها منذ بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٤٥ هـ .

وأبو العلاء عاش ما بين عامي ٣٦٣ : ٤٤٩ هـ

وحين ندرس عصره فنقف به عند منتصف القرن الخامس لا تتجاوزه ، نرجع ببدايته الى حوالى منتصف القرن الرابع ، قبل مولد أبى العلاء ، تقديرا للمؤثرات القريبة التى شاركت فى توجيه

مجرى الأحداث وتحديد سير الحياة العامة ، الى حيث قدر لها فى زمان أبى العلاء .

والنصف الثانى من القرن الرابع ، قسد شهد بدء انهيار الدويلات الفتية التى قامت فى أقطار الدولة الاسلامية ، وكان لها من القوة ما هيأ لها الظفر بالاستقلال الذاتى مع التبعية الرسمية لبغداد ، مركز الخلافة . كما كان لهسا دور واضح فى النهوض بالأقاليم ، فى ظل ما يشبه اليوم نظام الحكم المحلى .

وكان من الممكن ، لو أسعفت الظروف وقبلت سنة الحياة ، أن تقوى الدولة الاسلامية بقوة أقطارها ، لكن ضعف السلطان المركزى فى بغداد ، قد عجل بانهيار الدويلات القوية فى الأطراف، حيث كان الأمراء ملزمين بالحرص على الارتباط الاسمى بخليفة المسلمين ، احتفاظا بالمظهر الديني لقيادة الجماهير المحكومة . فكانوا يلتمسون السند الشرعى لعروشهم ، بولاء جبرى للخلافة، تدعيما لسلطتهم الاقليمية وكسبا لطاعة المحكومين . فاذا مات الأمير وخلفته ذرية ضعاف ، ضاع التدبير وانهار الملك ، بعد أعوام قد تعد بالعشرات ، وليسست بشيء فى أعمار الدول والشعوب .

فكل قائد يبلغ مبلغ القوة ، يستطيع أن يخرج على الأمير اذا اشترى تأييد الخليفة ، وكل مظهر من مظاهر الضعف فى ولاة الأقاليم ، يعالجه الطامحون من جندهم ومواليهم ، أو جيرانهم ومنافسيهم ، بضربة باترة يباركها خليفة المسلمين ...

وكل عرش يموت أميره ، تتطاول اليه الأعناق الشاعرة بفضل

قوة ، ولا على القوى أن يطأ الرءوس ويلغ فى الدماء ، فان بغداد تستطيع أن تسند فعلته بصك شرعي !

والشعوب بمعزل عن هذا ...

تنفرج على الصراع الدائر ولا فرق عندها بين غالب ومغلوب.. والقرن الخامس قد شهد ترنح امارات الأقاليم تحت ضربات التنافس والتقاطع ، ولطمات الدس والكيد ، والعدو واقف بالمرصاد يتربص بها الدوائر .

وقلب الدولة بغداد ، قد وهى وتصدع ، فهى فى عصر أبى العلاء مسرح للفتن والمغامرات ، وسوق للصفقات . وقد ضعف شأن الديلم القائمين بالأمر فيها ، وتسلط الأتراك فأكثروا فيها الفساد .

وجلجلت أصوات بنحل دخيلة وملل طارئة ، من مثنوية وحلولية وتناسخ وزندقة .. واحتدم الصراع الشعوبى والمذهبى ، واختلت الموازين وتاهت القيم .. وضريت الطبقية : فالثروة في المجتمع المتصدع يستأثر بها أفراد معدودون ، والحقوق الاجتماعية لبشرية الناس غير مقررة ولا مؤداة ، بل يأكل الأقوياء الضعفاء ، ونجم عن سوء الأوضاع الاقتصادية وفساد الحالة السياسية ، أمراض نعرفها ، في سوء النظرة للحياة وانتظار المباغتات ، وظهر سوء الخلقية الفردية فيما شاعمن نفاق ودجل ونفعية وصولية ، كما ظهر سوء الخلقية العامة في تحلل الوحدة والتداعي لعمل غير صالح ، وفي تصارع المذاهب والقوى دون أن يكون في الأمر شيء من حق مقرر أو قيم ثابتة أو نظام مستقر

أو تقاليد راسخة ، وانما هو تنازع عار على السلطة والجاه والثراء ، بالقوة والاغتصاب أو بالمكر والحيلة ، أو بالنفاق والاستجداء . وصار الدين الى لون مذهبى تؤثر عليه الأعراض الطارئة ويتغير بتغير الأسر الحاكمة ، وما أسرع ما كانت تنغير وتتبدل . والحق أن هذا الفساد لم يكن طارئا مستحدثا ، وانما كانت له بذور من قديم ، ظلت تعمل عملها فى الخفاء وتنخر فى أساس الدولة ، لكنها فى عصر أبى العلاء كانت قد نمت وترعرعت ، وآت

أكلها السام المشئوم .

والحق كذلك أن أبا العلاء لم يكن قبل رحلته الى بغداد ، بمعزل عن هذا كله .. فحلب من كبريات حواضر الشام ، والشام من قديم يقف بين التيارات المتدافعة : كان في الجاهلية بين روم وفرس وعرب ، وفى العصر الأموى بين الحجاز والعراق ، وفي عصر أبى العلاء بين العباسيين والفاطميين ، والروم منهما غير بعيد . وهو يتنفس في هذا الجو u وعلى بابه تصطخب الأمواج . ولقد ولد فى عنفوان المعركة سنة أقيمت الدعوة بالحرمين للمعز العبيدى الفاطمي ، وقطعت خطبة بني العباس . يلتفت عن يمين فاذا العراق غيراً بعيد منه ، فيه خلافة عباسية سنية قائمة ، بابعها جمهور المسلمين ورسخها عمر طويل قارب ثلاثة قرون ، ويلتفت الى يسار 4 فاذا مصر قريبة منه واصلة اليه ، قد استقرت فيها دولة فاطمية قوية فتية ، في عنفوان نشاطها وضجيج دعوتها ، ومن حولها التف الناقمون والطامحون والمرتزقة المغامرون ، وخفت بها ايحاءات غيبية وهمسات سرية ...

وحلب كانت تابعة للعباسية من عصرها الأول ، ثم استقلت بها الحمدانية استقلالا ذاتيا مع التبعية الرسمية لبغداد ، وولد أبو العلاء ليشهد انطفاء الشعاع البارق ، وقد طويت الصفحات المجيدة التي كتبها « سيف الدولة الحمداني » بجهاده وبطولته ، ووضعت مكانها صفحات سيسود مكتوبة بالتخاذل والهزيمة والتمزق ، واستجداء المعونة من الروم ، الذين أمضىسيف الدولة حياته يجاهدهم ويدفعهم عن ديار العرب والاسلام . اتنهى ذلك الملك الشامخ الى « أبى الفضل » حفيد سيف الدولة ، عام ٣٨١هـ ، فسلبه منه « أبو نصر بن اؤلؤ » أحد موالى أبيه سعد الدولة ، ثم وثب على أبي نصر مولاه « فتح » فاعتصم في قلعة حلب وكاتب الخليفة الفاطمي العلوى بمصر فولاه عليها وأعطاه معها صيدا وبيروت ، على حين سار ابن لؤلؤ الي انطاكية — وهي يومئذ للروم — فأقام معهم بها . وظلت حلب تنتقل من يد الى يد ، حتى غزاها صالح بن مرداس عام ٤١٤ هـ ، واستقر بها بضع سنوات الى أن غزاه جيش الظاهر العلوى فقتله عام ٤٢٠ ، وقتل معــــه ولده ، وأرسل رأسيهما الى مصر! وفي عام ٤٣٢ هـ سار الروم الى حلب ومعهم حسان بن مفرج الطائي — وكان قد هرب اليهم اثر هزيمته من عسكر الظاهر العلوى ، على الأردن — وعلى رأس الأمير العربي علم فيه صليب ، ومن حوله جند الروم يدخلون حلب ظافرين منتقمين ليذيقوا أهلها أهوال الأسر وذل السباء. وفجا أبو كامل شبل الدولة ، نصر بن صالح بن مرداس ، فسار الى حلب وحارب الروم عنها ، وظل يحكمها الى أن قتله

جيش المستنصر الفاطمي، في حماة سنة ٤٢٩ هـ . وتتابعت جولات الصراع بين الولاة والحكام ، الى وفاة أبى العلاء ...

* * *

نقول: لم يكن أبو العلاء ، قبل رحلته الى بغداد ، بمعزل عن هذا الصراع الدائر هنا أو هناك .. وقد نقلنا فيما مر من حديثه ، قصائد حماسية من (سقط الزند) فى المعارك بين العرب والروم ، ونقلنا كذلك من فخرياته ، ما ينم عن ضيقه بفساد العصر واختلال القيم وإضطراب الموازين ...

لكنه فيما يبدو ، كان مشغولا الى حد كبير بمعركة تحديه وأمانى طموحه ، بحيث يمكن القول بأن احساسه بفساد الحياة العامة ، كان يتوارى خلف احساسه بهمومه وأمانيه ، تاركا مع ذلك رواسب فى أعماقه ، لن تلبث أن تظهر فى تأملاته وأماليه ، بعد أن خلا الى تفسه فى عزلته ، وراح يرصد خلل العصر ويسجل انكاره على أمراض المجتمع .

ومهما يكن شعوره بما كان يجرى فى الشام ، فان المعترك فى الاقليم لا يقاس بالذى فى العاصمة صخبا واحتداما وعنفا ، وهو وان لم يفته لمح ما هناك على البعد ، فالذى لا شك فيه أن بغداد لم تفقد جاذبيتها وسحرها ، فهى عاصمة الدنيا ، وحاضرة العربية والاسلام ، وفيها أعلام العصر وأئمة الزمان ، وفيها حياة علمية وأدبية ، لم يحل دون نشاطها أنها لم تكن شعبية منظمة ، ولا قصد بها الى خدمة العلم ونشر الثقافة ، بقدر ما قصد بها الى استكمال مظهرية العظمة وأبهة السلطان ...

بل لعل هذا الوضع ، كان من أسباب نشاطها ودواعى رواجها : فقد جذب الى العاصمة حشدا كاثرا من الكتاب والعلماء والشعراء ، وطلاب الشهرة والجاه . وهناك وصل منهم من وصل الى منصب الوزارة ، ووقف آخرون على أبواب السادة الحكام والأمراء يستجدون فضلات موائدهم ، يحدوهم من مطلع القرن الرابع ، صوت زعيمهم المتنبى :

أبا المسك هل في الكأس فضل أناله

فاني أغنى منذ حين وتشرب!

والى هذا المعترك الصاخب ، مضى أبو العلاء ليجد نفسه هناك فى دوامة الموج الهادر !

وفى ذلك المناخ تنفس وأقام يختبر طاقته ويكتشف نفسه ه الى أن اتتهى الى عزلة وانفراد ...

مديث الذهاب

فيا برق ليس الكرخ دارى وانسا رمانى اليه الدهر منذ ليال فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسال

(سقط الزند) متى سافر الى بغداد ?

ولماذا ألقى بنفسه — وهو الضرير المستطيع بغيره — فى خضمها المائج الهادر ?

وماذا لقى فيها من صدمة زلزلت كيانه ، ودفعت به الى اصدار القرار الصارم على نفسه بالعزلة والحرمان ?

أما متى سافر ، فمن الاخباريين من قالوا سنة تسع وتسعين وثلاثمائة ، كابن الجوزى والقفطى وأبى الفداء والذهبى .

ومنهم من قالوا: سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، كابن الأنبارى وياقوت والصفدى وابن حجر.

وهو خلاف يسير ، يمكن أن يفسره عندنا قول ابن العديم انه « رحل الى بغداد سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة ، ودخلها سنة

تسع وتسعين » فيكون الأولون قد جددوا الرحلة بوقت بدئها من المعرة ، وحددها الآخرون بعام وصوله الى بغداد .

ووهم « ابن خلكان » فجعلها فى (الوفيات) رحلتين ، فى عامى ٣٩٨ ، ٣٩٩ هـ ، وهــو مالم يقله أحــد سواه ، وليس فى آثار أبى العلاء حديث الا عن رحلة واحدة لم تتكرر .

والذى يعنينا على كل حال ، هو أن أبا العلاء سافر الى بغداد ناضج الشباب فتى الرجولة ، فى نحـو السادسة والثلاثين من عمره ...

ولم سافر ?

قيل « انه أوذى فى وقف له ، فرحل الى بغداد متظلما من أمير حلب » وممن ذكر ذلك القفطى فى (انباه الرواة) والذهبى فى (تاريخ الاسلام)

لكنهم أمسكوا بعد ذلك ، فلم يأتوا بأى خبر يشير الى أنه تحدث فى أمر هذا الوقف ، أثناء مقامه الذى طال ببغداد وامتدالى سنة ٠٠٠ ه.

كما أن أبا العلاء نفسه ، لم يشر اطلاقا الى ذلك الوقف ، فيما أطال من حديث عن رحلته التي نفي أن تكون متعلقة بمال ...

فهل كانت رحلته ، التماسا لسعة فى الرزق ، واستكثارا من النشب ?

يبدو أنه كان - لدى بعض القوم - مظنة أن يفعل . شأنه في ذلك شأن الكثرة من العلماء والأدباء الذين رحلوا الى بغداد .

وذلك ما نفاه مؤرخه « ابن العديم » بقوله : « ولم يرحل لطلب دنيا ولا رفد » مستشمهدا لذلك بقول أبى العلاء :

أاخواننا بين الفرات وجلق

يد الله لا خبرتكم بمحسال

أنبئكم أنى على العهد سالم

ووجهي لما يبتــذل بســؤال

وأنى تيممت العــراق لغــير ما

تيسه غيلان عند بلال

فأصبحت محسودا بفضلي وحده

على بعــد أنصــارى وقلة مالى

والأبيات من (سقط الزند)

وعاد أبو العلاء ، فنفى نفيا قاطعا أن يكون سافر استكثارا من المال ، فى رسالته التى بعث بها الى أهل المعرة عند خروجه من نغداد وقال فيها :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ...

« .. والله يحسن جزاء البغداديين ، فلقد وصفونى بما لا أستحق .. وعرضوا على أموالهم عرض الجد ، فوجدونى غير جذل بالصفات ولا هش الى معروف الأقوام » .

وأملى فى رسالته الى خاله أبى القاسم على بن سبيكة ، مشيرا الى محاولة البغداديين قضاء حاجاته المادية ، حرصا على بقائه بينهم : « وكلما عرضوا قضاء حاجة أعرضت عن تكليف المشقة ، لأنى أعتقد حكمة « زهير » فى قوله :

ومن لا يزال يستحمل الناس نفسه

ولا يعفها يوما من الذل يُســـأم « وأمروني لرغبتهم في صقبي منهم — أي جواري — بأمور تنهى عنها القناعة وتكف دونها العادة :

على حين أن ذكيت وابيض مفرقي

أثسام الذي أعييت اذ أنا أمـــرد أماوي ما يغنى الثراء عن الفـــتي

اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

وأبو العلاء عندنا المصدق ، وعبارته تشهد بأنه لم يكن يتكلف رفض العطاء والمنة تجملا ، وانما هي عادة فيه وطبيعة !

فلعله اذن سافر يستزيد من العلم ، ويستكثر من عدد شيوخه على مألوف عصره ، حيث كان العالم يعتز بكثرة من لقى من الشيوخ ?

ربّما خطر ذلك بالبال * لكن أبا العلاء ينفيه كذلك نفيا قاطعا فى رسالتيه اللتين أملاهما عند منصرفه من العراق ، فقال فى احداهما لخاله أبى القاسم:

« ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسى باجتداء علم من عراقى ولا شامى .. وانصرفت وماء وجهى فى سقاء غير سرب ، لم أرق منه قطرة فى طلب أدب ولا مال » .

وقال في الأخرى لأهل المعرة :

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ، ولا أتكثر بلقاء الرجال » .

ففيم اذن كان السفر ?

أبو العلاء يصرح فى رسالته الى خاله ، بأن الذى أقدمه الى تلك البلاد « مكان دار الكتب بها » كما يصرح فى رسالته الى أهل بلده ، أنه انما آثر « الاقامة بدار العلم » .

وليس قوله عندنا بمتهم ، وهم يذكرون فى تاريخه أنه لمـــا وصل الى بغداد ، طلب أن تعرض عليه الكتب التى فى خزائنها .

لكن بقى أن نسأل: اذا كانت هذه هى الغاية من الرحلة ، فقيم كان ذلك التحول الخطير فى حياته بانصرافه من بغداد ، وقد حقق غايته من السفر اليها ، وعرضت عليه كل الكتب التى طلبها هناك ? واذا صح ما ذكره ابن فضل الله العمرى فى (المسالك) من أنه لما أجيب الى طلبه « جعل لا يقرأ عليه كتاب الاحفظ جميع ما يقرأ عليه » أو ما ذكره الققطى فى (الانباه) من أنه « حضر ما يقرأ عليه » أو ما ذكره الققطى فى (الانباه) من أنه « حضر خزانة الكتب التى بيد عبد السلام البصرى ، وعرض عليه أسماءها ، فلم يستغرب شيئا لم يره — من قبل — بدور العلم فى طرابلس ، سوى ديوان تيم اللات ، فاستعاره ، وخسرج من بغداد وقد سها عن اعادته ، ولم يذكره حتى صار بالمعرة ، فأعاده السه » .

أقول: اذا صحت هذه الأخبار — وفى النصوص العلائية ما يؤيدها — فان الرحلة اذن تكون قد حققت غايتها ونجحت كل

النجاح ، بحيث يعوزنا ، مع هذا النجاح ، أن نفهـم سر قراره بالعزلة والحرمان ، وهو في عز رجولته وعنفوان طموحه !

ولقد لقينا أبا العالاء فى (سقط الزند) قبل رحلته ، وسمعناه يجلجل بقصائده المسرفة فى التحدى والمكابرة ، المعبرة عن طموخ لا يعرف حدا يقف عنده ، وسمعنا معها قول المصيصى الشاعر : «لقيت بمعرة النعمان عجبا من العجب : رأيت أعمى شاعرا ظريفا يلعب الشطرنج والنرد ، ويدخل فى كل فن من الجد والهزل ، يكنى أبا العلاء . وسمعته يقول : أنا أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر ، فقد صنع لى وأحسن بى ، الذكفانى رؤية الثقلاء البغضاء » .

ومع الأيام والسنين ، نضج وعيه لذاته واكتشافه لنفسه وادراكه لمأساته ، لكنه ظل يقاوم دواعى القنوط ، ويفر من الاستسلام للهزيمة فيما أراد من تحدى الأيام « ومعاندة القدر » حتى بدا له آخر الأمر أن يحسم معركته بالسفر الى بغداد ليبلو طاقته على المضى في المقاومة .

وأغلب الظن أنه صفى حسابه مع طموحه قبل الرحلة ، فلم يستبق منه الا الأمل فى المجد العلمى والجاه الأدبى . وكانت قد ذاعت له منذ صباه شهرة اقليمية مبكرة ، ان لم يشهد بها ما مر بك من أخبار شبابه بالمعرة ، فان فى (سقط الزند) شواهد ناطقة بما أتيح له من تفوق على منافسيه ، وشعوره بأنه فاتهم جميعا بمواهبه ، فما عادوا قادرين على أن يبلغوا شأوه الا أن تختل الموازين وتضل المقاييس . وقد بقى ليسجل هذه الشهرة الاقليمية،

أن تعترف به بغداد ، وقد كان اعترافها مطمح كل عالم وأديب يجد فى مواهبه أو علمه ما يؤهله للظفر بشهادة من حاضرة العربية والاسلام .

هكذا شد رحاله الى مدينة السلام ، يحدوه رجاء كبير فى أن يقر من الهزيمة التى أحس بوادرها فى أعماق نفسه ، وأمل عزيز فى أن يفرض وجوده على الدنيا والناس .

وتزود للرحلة بأسلحته التي يملكها: ذكاء شبه أسطورى ، وفقه عميق لعلوم العربية والاسلام ، وموهبة أدبية أصيلة مبدعة . تلك كانت أسلحته في الجولة الحاسمة من معركته مع نفسه ومع الدنيا ..

* * *

طال عليه الطريق وأجهده السرى وهو يتعجل الوصول الى بغداد ، نافذ الصبر ضيق الصدر بكلال ناقته ، ولم يذكر مؤرخوه من حديث الذهاب ، الا خبرا جىء به فى معرض الكلام عن ذاكرته العجيبة : قيل انه مر وهو راكب بشجرة فى طريقه الى بغداد ، فقال له من يقوده : طأطىء رأسك ، ففعل . حتى اذا آب من الرحلة بعد عام وبعض عام ، ومر بذلك الموضع ، طأطأ رأسه من تلقاء نفسه ! فسئل فى ذلك فأجاب : ها هنا شجرة . قالوا : ما هاهنا شىء ! ثم فحصوا الموضع فاذا أصل شجرة مجتثة .

طأطىء رأسك !

ما أشقها من كلمة على الحس المرهف لهذا الضرير الذي يخرج لأول مرة الى خضم العالم الواسع ، وقد كان من قبل ألف

الحركة فى حدود عالمه الصغير الضيق ما بين المعرة وحلب ، مهتديا بحسه الذكى وبصيرته الواعية ، ومترنما بمثل قوله فى الدهر الأول:

وأغدو ولو أن الصباح صوارم

وأسرى ولو أن الظلام جحافل !

* * *

غير أن شح الأخبار عن رحلته ، يعوضه سخاء أبى العلاء فى تسجيل كل خطواته وخواطره . وبين أيدينا فى (سقط الزند) تصيدة مطولة ، أرسلها الى أبى حامد الاسفرايينى — من أعلام بغداد — يسأله أن يكون دليله فى متاهة العاصمة . أعنى قصيدته العينية التى مطلعها :

لا وضع للرحل الا بعد ايضاع

فكيف شاهدت. امضائى وازماعى

يا تاق جرِدى فقد أفنت أناتك لي

صبرى وعمرى وأحلامي وأنساعي(١)

ومنها نعلم أنه أخذ طريق الأنبار والقادسية ، ثم عبر بادية الشام نحو بغداد ، كما نعلم ما تجشمه من مشاق السفر ووحشته في المهمه القفر :

سارت فزارت بنا الأنسار سالمة

تزجى وتدفع فى مــوج ود ُفَّاع

⁽۱) الأحلاس جمع حلس ، وهو كساء يطرح على ظهر البعير والأنساع جمع نسع ، وهو سير تشد به الرحال ،

والقادســـية أدّتهــا الى نفــــر

طافوا بها فأناخوها بجعجاع

ورب ظُنهـــر وصلناها على عجـــل

بعصرها ، في بعيــد الورد لماع(١)

بضربتين : لطهر الوجه واحدة

وللذراعين أخرى ذات اسراع (٢)

وكسم قصرنا صسلاة غير نافلسة

فى مهمة كصلاة الكسف شعشاع

وما جهـ رنا ، ولم يصـــدح مؤذننا

من خوف كل طويل الرمح خداع (١٣)

الى أن قال:

وبالعراق رجال قربهم شرف

هاجرت فی حبّهم رهطی وأشیاعی

اسمع أبا حامد ، فتيا قصدت بها

من زائر ، لجميل الود مبتاع

مؤدب النفس أكال على سغب

لحم النوائب شراب بأنقاع

⁽۱ ، ۲) يعنى الجمع بين صـــلاتى الظهـــر والعصر ، فى وقت واحد ، ترخصا ، والورد بعيد يلمع كالسراب ، بضربتين على الوجه واليدين للتيمم .

⁽٣) يشير الى قطاع الطرق في البادية المقفرة .

أرضى وأُنصِّفِ الا أننى ربساً

أربيت ، غير ً مجيز خرق اجماع (١)

وذاك أني أعطى الوسق منتحيا

من المودة ، معطى الود بالصاع (٢)

ولا أثقل في جاه ولا نشب

ولو غدوت أخا عــدم وادقاع

من قال : صادق لئام الناس قلت له

قول ً ابن أسلت : قدأ بلغت أسماعي (٢)

* * *

مطيتي في مكان لسبت آمنة

على المطايا ، وسرحان له راع

فارفع بكفي فاني طائش قدمي

وامدد بضبعي فانى ضيق باعى

وما يكن فلك الحمد الجميل به

وان أضيعت فاني شاكر داع

* *

⁽١) يعنى : أنصف برعاية حقوق المودة ، غير أنى ربما أربيت وزدت في المودة ، غير مجيز خرق الاجماع على تحريم الربا . وهو محرم بالنص والاجماع .

⁽٢) الوسق : ستون صاعا . يفسر هنا معاملته بالربا ، بأن من أعطاه صاعا من المودة ، ضاعفه له في الجزاء ستين صاعا !

⁽٣) يشير الى قول أبي قيس بن الأسلت ١

قالت ، ولم تقصد القيل الخسا مهلا ، لقد أبلغت أسسماعي

وحدد مؤرخوه ليوم وصوله الى بغداد ، ظرفا كئيبا لطم قلبه الحساس لطمة قاسية . وأنقل هنا من وصفهم لمشهد وصوله :

« واتفق يوم وصوله الى بغداد موت الشريف الطاهر والد الشريفين الرضى المرتضى . فدخل أبو العلاء الى عزائه والناس مجتمعون والمجلس غاص بأهله . فتخطى بعض الناس فقال له ، ولم يعرفه : الى أين يا كلب ? قال : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ! ثم جلس فى أخريات المجلس ، الى أن قام الشعراء وأنشدوا مراثيهم ، فوقف أبو العلاء وأنشد — مرتجلا — قصيدته فى رثاء الفقيد :

* أودى فليت الحادثات كفاف

فلما سمعه ولداه ، قاما اليه ورفعا مجلسه وقالا له : لعلك أبو العلاء المعرى ? قال : نعم . فأكرماه واحترماه » .

مأتم يستقبله يوم وصوله!

والكلب ، أول لقب تقدمه اليه بغداد ?

ما أعجبه من اتفاق! لكأنما وقفت الدنيا مترصدة تنتظر مقدم ذلك المغرور، لترده الى موضعه على الأرض لا بعد ما طال مزعمه أن النجم دونه!

وأوى الى فراش غربته محزونا يجتر همه ويلعق جرحه ، ويرنو عبر الظلام الدامس الى برق لاح له من ديار الشام فهاج مواجعه .

هنا أيضا ، يسجل أبو العلاء أدق خواطره ، فى لاميته الرائعة التى أنكر فيها على الابل أن تعذبه بتحنانها ، رغم ستره لوجوهها

كيلا تلمح البرق المتعالى! ولولا ما بينه وبينها من تعاطف ، لأمر صاحبه فذبحها ، كى ينجو مما تثير فيه من لواعج الحنين وأشجان الغربة ، وهيهات هيهات!

طربن لضوء البارق المتعالى

بيغداد وهنا ، ما لهن ومالى ?

سبت نحوه الأبصار حتى كأنها

بناريه ، من هناً وثكم ، صوالي

اذا طال عنها سرها لو رءوسها

تمسد اليه في رءوس عسوالي

تمنت « قويقا » والصراة حيالها

تراب لها ، من أينق وجمـــال (١)

اذا لاح ايماض سترت وجوهها

كاني عمرو والمطي ســعالي (٢)

وكم هم نبضو أن يطير مع الصبا

الى الشام ، لولا حبسه بعقـــال

ولولا حفاظي قلت للمسرء صاحبي

سيفك قيدها فلست أبالي

⁽١) قويق ؛ نهر بحلب . والصراة : نهر ببغداد .

⁽٢) من أساطير العرب ما زعموا أن عمرو بن يربوع بن حنظله ، تزوج السعلاة — أنثى الغول — فقيل له: انك ستراها خير امرأة ما لم تر برقا فانها اذا رأت البرق لم تلبث مكانها . فكان عمرو اذا لاح برق سترها عنه ، الى أن غفل ليلة ولاح البرق ، فاندفعت لا تلوي على زوج أو ولله ، وقالت :

أمسك بنيك عمرو أنى آبق برق على أرض السمالي آلق!

سفائر ليـــل أو ســـفائن آل

لقد زارني طيف الخيال فهاجني

فهــل زار هذی الابل طیف خیال

لعل كراها قد أراها جذابها

ذوائب طلح بالعقيق وضــــال

ومسرحها في ظل أحسوى كأنها

اذا أظهرت فيه ، ذوات حجال

شوارف تزهاها حلوم افال

ترى العسود منها باكيا فكأنه

فصيل ، حماه الخلف رب عيال (١)

سيتنسى مياها بالفيلاة نميرة

كنسيانها وردا بعين اثال (٢)

فقد ألهبت وجدا صدور رجال

وأو وضعت في دجلة الهام لم تفق

من الجـرع الا والقلوب خــوال

⁽١) العود : المسن من الابل . والخلف: الضرع

⁽٢) عين آثال : عين تردما الوحوش . يعنى نسيان الابل عهد وحشها

تلـون زبورا في الحنـين منز لا

عليهن ، فيه الصبر. غير حملال

بكى سامرى الجفن ان لامس الكرى

له هدب جنن مسه بسجال

تهاداني الأرواح حتى تحطني

على يد ريح بالفرات شمال

فيابرق ليس الكرخ دارى وانما

رماني اليه الدهر منذ ليال

فهل فيك من برق المعرة قطرة

نغيث بها ضمان ليس بسال

أاخواننا بين الفرات وجلق

يد الله ، لا خبرتكم بمحال

أنبئكم أني على العهد سالم

وأنى تيمست العيراق لغير ما

تيممه غيلان عند بلال (١)

فأصبحت محسودا بفضلي وحده

على بعد أنصاري وقلة مالي

ندست على أرض العواصم بعدما

غدوت بها في السؤم غير معالى (٧)

(١) غيلان : ذو الرمة ، الشاعر الأموى المسهود . وبلال :

أَبِنَ آبِي بَرِدَةً بِنَ أَبِي مُوسَى الأَشْعِرِي وَلَى الكُوفَةَ، واليَّه قَصِه غَيْلانِ . (٢) العواصم : حصون من حلب الى حماة ، منها المعرة .

أروح فلا أخشى المنـــايا وأتقى

تدنس عرض أو ذميم فعـــال

اذا ما حبال من خليل تصرمت

علقت بخل معسيره بحبال ولو أننى في هالة البدر قاعد

لما هاب يومى رفعتى وجالالى في النفس اذن بقية من طموح واعتداد ، ما تزال تعينه على محنته ، وتمده بطاقة من الاحتمال لما أحس من هم وكرب ، بعد أن رماه الدهر الى الكرخ « منذ ليال »! وليس الكرخ داره كما

فليطو اذن حنينه الطاغى ، وليطو معه ما أحس من وقع لفظ « الكلب » على وجدانه المرهف ، وهو على كل حال لم يلق اللفظ الجارح صامتا ، بل أخرج من جعبته سلاحه : الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما ..

وأرضاه أن سمع ما اطمأن به الى أن شهرته قد سبقته الى بغداد ، اذ سأله الشريفان : لعلك أبو العلاء المعرى ..

أجل 4 ائه هو .. الذي يعرف للكلب سبعين اسما ، والذي يرتجل مرثية في الشريف الطاهر ، فيجذب الأسماع والقلوب ، ويحظى بالاكبار والاحترام!

فيخضم العياصمنه

فيادارها بالحسزن ان مسزارها

قريب ، ولكن دون ذلك أهــوال

تمنيت أن الخمـــر حلت لنشــوة

تجهلني كيف اطمأنت بي الحـــال

فأذهل أنى بالعراق على شفى

زرى الأمانى ، لا أنيس ولا مال (سقط الزند)

فى محلة (القطيعة) على شط دجلة كان منزله ... ومن ماله الذى حمله معه من المعرة ، كان يدبر ضرورات عيشه . واليه توافد الناس فى أول الأمر ، يختبرونه .

فلم يكن البغداديون بحيث يكتفون بشهادة اقليمية يحملها أبو العلاء معه من خارج العاصمة أو تسبقه اليها ، فالذى يبهر الناس فى المعرة أو حلب ، قد يكون فى العاصمة الكبرى غير لافت ولا مثير ، ولابد من أن يكون لأهل بغداد الكلمة الحاسمة فيما اشتهر من واسع علمه وعجيب حفظه وذكائه .

وفى الخبر أنهم أعدوا له امتحانًا ، أشار اليه غير واحد من

المُؤرخين ، ومنهم « ابن فضل الله العمرى » الذى قال فى (مسالك الأبصار):

« ولما دخل بغداد أرادوا امتحانه ، فأحضروا دستور الخراج الذي في الديوان ، وجعلوا يوردون عليه ما فيه مياومة وهو يسمع الى أن فرغوا ، فابتدأ أبو العلاء وسرد عليهم كل ما أوردوه له » .

وهكذا اجتاز الامتحان بنجاح .

وأقر له البغداديون بأنه أعجوبة الزمان فى حفظه وعلمه باللغة، كما شهدوا له شاعرا أصيلا مبدعا ، بقراءتهم عليه ديوانه (سقط الزند) بعد وصوله الى بغداد .

وبدا له أن المعركة توشك أن تنتهى بما خامره من رجاء فى الاقامة حيث أراد ببغداد . مرفوع المكانة كريم الموضع .

وكانت فعلا على وشك الانتهاء الى ذروتها الحاسمة ، لكن ليس على الوجه الذي توهمه أو رجاه :

دخل خزائن العلم وعرض عليه كل ما فيها من كتب فوعاها حفظ . أو كما قالوا ، لم يلق فيها ما يحمله معه الا ديوانا واحدا استعاره من بيت الحكمة ، وهو ديوان شعر قبيلته تيم اللات ، ولبث الى ما بعد سنين طوال ، يذكر جولته بين الوراقين فى مدينة السلام ، ويسترجع ذكرياته هناك ، فمما أملاه فى (رسالة الغفران) بعد ربع قرن من رحلته الى بغداد ..

« وكنت بمدينة السلام فشاهدت بعض الوراقين يسأل عن قافية « عدى بن زيد » :

بكر العاذلات في غلس الصب

ح یقـولون لی أما تســـتفیق ودعا بالصبوح فجــرا فجـــاءت

قينـــة في يسنهـا ابريق

وزعم الوراق أن « ابن حاجب النعمان » سأل عن هذه القصيدة وطلبت فى ديوان « عدى » فلم توجد . ثم سمعت بعد ذلك رجلا من أهالى أستراباذ يقرأ هذه القافية فى ديوان العبادى — عدى — ولم تكن فى النسخة التى فى دار العلم » .

وأحب أبو العلاء بغداد ، لما شغفه من خزائن الكتب فيها ، فضلا عن نشاط مجالسها العلمية حيث يتاح له التألق والظهور .

وظن أن « الزمان يسعفه على المقام بها » كما قال ...

لكن ظنه خاب!

واذا كان لم يلق سلاحه يوم دخل بغداد فاستقبله مأتم الشريف الطاهر وصكت سمعه الكلمة الجارحة ، فان الأيام كانت تدخر له ما هو أقسى وأمر:

ذكر ابن الأنبارى فى (نزهة الألبا) وغيره ، أن أبا العلاء قصد مجلس امام النحو ببغداد : أبى الحسن على بن عيسى الربعى ، فلما استئذن له قال أبو الحسن : ليصعد الاصطبل . — وهو الأعمى بلغة أهل الشام فيما ذكر ياقوت فى (معجمه) والصفدى فى (نكت الهميان) .

وانصرف « أبو العلاء » من فوره لم يلق أبا الحسن ، وفي

قلبه أثر السهم الجارح جاءه هذه المرة من عالم امام ، وليس من رجل من العامة — يجهله — في مأتم الشريف .

وتركها تفوت 4 وما يزال فى طاقته بقية احتمال .

ثم كانت الطعنة النافذة ، من يد الشريف المرتضى نفسه ، ذاك الذى أكرم أبا العلاء ورفع موضعه ، عندما أنشد مرثيته فى مأتم أبيه الشريف الطاهر .

يذكرون أن أبا العلاء «كان يوما بمجلس المرتضى وقد جاء ذكر المتنبى فتنقصه المرتضى وجعل يتتبع عيوبه. فقال أبو العلاء: لو لم يكن للمتنبى من الشعر الاقصيدته:

* لك يا منازل في القلوب منازل *

لكفاه فضلا . فعضب السيد المرتضى وأمر فستحب برجله وأخرج مهانا من مجلسه . وقال لمن يحضرونه : أتدرون أى شيء أراد الأعمى بذكر هذه القصيدة ? فان للمتنبى ما هو أجود منها لم يذكره . قالوا : النقيب السيد أعرف . فقال : أراد قوله : واذا أتسبك مذمتى من ناقص

فهي الشهدة لي بأني كامل

« ولما رجع الى المعرة لزم بيته فلم يخرج منه ، وسمى تفسه رهين المحبسين » .

أتفوت هذه أيضا ?

أن يكون تحامل على نفسه ولم يخرج فورا من بغداد اثر طرده من مجلس نقيب الأشراف ، مهانا مسحوبا من رجله ، فلا بد أنه كان يشق على نفسه بأكثر مما فى طاقتها أن تتحمله . ولكن الذي لا ريب فيه عندنا ، أنه اذا كان لم ينسحب من المعركة في الظاهر ، فقد انسحب منها نفسيا وبدأ يحس التعب والكلال 4 ويصغى بملء وجدانه الجريح ، الى قصيدة أرسلها اليه من المعرة 4 أخوه « أبو الهيثم عبد الواحد » واستعطفه على من خلف بالشام ، ناقما على بعداد أن اجتذبت ببريقها الخادع ، ذلك الماجد الأبي الكريم . وهي قصيدة مطولة 4 نقل منها ابن العديم في (الانصاف) أربعة وثلاثين بيتا ، وفيها يقول أبو الهيثم:

بغداد لا ستقيت ربوعك دسمة

وغدت رياضك حنظلا ومرارا

أنت العروس يروق ظــاهر أمــرها

وتكون شيينا في اليقين وعارا

أضرمت قلبي باجتذابك ماجدا

كالسيف أعجب رونقــــا وغــرارا

منته محضا فلما شهه

ظماً أتاك به ، سقيت سمارا

وجذبت فأتاك يعتسف الردى

ويخوض منه لجية وغميارا

شعفا بدار العلم فيك ، وقلبه

ما زال ربعــا للعـــلوم ودارا

ما زدت عما عنده ، فسيقاك من

رفع السماء نقيصة وعشارا

منے النےوی لما نأت بك ثارا

حاشاك أن تبدى الجفاء لخلة

وتعيــد أقران الوفــاء قصـــــارا

أدرك بادراك المعسرة مهجسة

تفنى عليك مخسافة وحسذارا

بلغت بك الهمم المراد فأيأست

منك الحسود ولم تنط بك عارا

فأقمت في الزوراء ثم غـــدوت في

أفق المفاخر كوكب سيارا

فاجنح على مرضاة ربك طالبا

منه الجهزاء وجهانيب الاصرارا

واسلم لقومك اذ غدوت لمجــدهم

تاجيا تشرف فضيله وسيوارا

فهل كانت أنباء أبى العلاء فى غربته ، وما يلقى من خبث الناس وشرهم ، تصل الى أهله بالمعرة فتحرنهم وتكربهم ? أو كان أبو الهيثم — وهو من أقرب الأهل الى أخيه وأعرفهم بخلقه وطبعه — يتمثل حال الغريب النازح ، فيشفق عليه من المقام فى بلد تسرح فيه ثعالب الانس وذئاب البشر ?

كلا الفرضين محتمل ...

وأقام بعد ذلك ما أقام فى بغداد ، وهو يعيد النظر فيما تزود به لبغداد من عدة :

الأدب ?

لا جدوى منه الا اذا عزف للسلطان وتمرغ على أعتباب السادة ذوى الجاه والنفوذ . وقد أكرمه نقيب الأشراف حين وقف فى مأتم والده يعدد مناقبه ويذكر كريم سجاياه ، ثم أهانه وأذله ، حين جهر برأى له فى شاعر ، يخالف رأى السيد النقيب الشرف !

العلم ?

ان مجتمع العاصمة فى عصره ، يقدر من يعرف كيف يأتى بالثعلب أو الذئب من ذيله ، أكثر من تقديره لمن يعرف للكلب سبعين اسما أو ثمانين ...

العفة والآباء والصدق ?

يا لها من بضاعة نافقة ، فى سوق يروج فيها النفاق والزيف ، فهى لا تسمح بكلمة حرة تقال فى مثل مجلس الشريف المرتضى ، مخالفة لرأيه .. بل تلفظها وترفضها ، لتخلى المكان لقول شهود المجلس ، وهم خبراء بالسوق والبضاعة :

« السيد النقيب أعرف »!

وأجمع أمره على العزلة وهو ما يزال فى خضم المعترك، وقد عرف أن أسلحته مفلولة، تغلبها أسلحة أخرى لا يملكها، من مكر الحيلة ونعومة المداهنة ولؤم النفاق!

وأحس ألا مكان له في دنيا الناس ، وقد أعوز معمى البصيرة

وبلادة الشعور والضمير ، ومرونة فى الخلق والطبع يتلون بها فى موكب المنافقين والمهرجين ..

وبدأت رحلة الاياب ، وهو فى بغداد مقيم ...

بل انه ودعها ، وداع محزون لفراقها ، فى قصيدة أنشدها وهو ببغداد ، تهنئة بمولود لصديقه أبى القاسم بن القاضى التنوخى ، فقال :

ولول ما تكلفنا الليالي

لطـــال القول واتصــل الروى

اذا نأت العراق بنا المطايا

فسلا كنسسا ولا كان المطي

على الدنيا السلام فما حياة

اذا فارقت كم الا نعيى

وكذلك قال ، وهو ببغداد ، من قصيدة الى أبى على النهاوندى ، محمد بن محمد بن فورجة :

كفى بشـحوب أوجتهنـــا دليلا

أبت صنفا النواعب من نياق

وطير ، أن نقيــــم وأن نقيــــلا

تأملنا الزمان فما وجدنا

الى طيب الحياة به سبيلا

يفجعنـــا ابن دأية بابن أنس

نفارقه ، فلا تنبع الحسولا

كلفنا بالعسراق ونحن شرخ

ف لم نلم به الا كهولا

وردنا ماء دجلة خير ماء

وزرنا أشرف الشجــر النخيــــــلا

وأبنا بالغليــل ومــا اشتفينــــا

وغـاية كل شيء أن يـــزولا

واستسلم للهزيمة نفسيا قبل انسحابه من بغداد ، حين أدرك بملء يقينه أن المكابرة ضالة ، وأن الأمل فى النصر سراب ، وأن النضال عقيم ..

وانه لفى العاصمة غريب غريب ، ظامى، والورد قريب ، يتمنى لو أنالخمر حلت لنشوة تذهله عما يكابد من وحدة وضيق: فيادارها بالحسرن ان مرارها

قريب ولكن دون ذلك أهـــوال

اذا نحن أهللنا بنــؤيك ســاءنا

فهلا بوجه المالكية اهللال

تسىء بنسا يقظى فأما اذا سرت

رقادا ، فاحسان الينا واجسال

وغنـت لنا فی دار سـابور قینــة

من الورق مطراب الأصــائل ميهال

رأت زهرا غضا فهاجت بمزهر

مثانيه أحشاء لطفن وأوصال

فقلت : تغنى كيف شئت فانسا غناؤك عندى باحمامة اعرال تمنيت أن الخمر حلت لنشوة تجهلني كيف أطمأنت بي الحسال فأذهل أنى بالعراق على شفى زرى الأماني لا أنيس ولا مال مقتل من الأهمان سر وأسرة كفي حزنا بكينن مشبت واقلال متى سألت بغداد عنى وأهلها فاني عن أهـــل العواصــــــم سآل اذا جن ليسلى جنن لبي وزائد خفوق فؤادي كلما خفق الآل ومساء بلادي كان أنجع مشربا ولو أن ماء الكرخ صهباء جريال فيا وطنى ان فاتنى بك سيابق من الدهر فلينعبم لساكنك البال فإن أستطع في الحشر آتك زائرا وهيهات ، لي يوم القيامة أشــغال

صريث الإياب

« وهو أمر شرى عليه بليل .. ليس بنتيج الساعة ، ولا ريب الشهر والسنة ، ولكنه غذى الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل » .

(من رسالته الى أهل المعرة)

على هذا النحو كان انسحابه النفسى من بغداد قبل أن يحملُ شبابه المدبر المقهور ورجاءه الخائب الضائع ، ليعود من حيث جاء الى محبسه بمعرة النعمان.

ولم تكن هناك حاجة قط ، الى مطاردة من فقهاء بغداد تخرجه منها طريدا منهزما . أعنى المطاردة التى أشار اليها « ابن كثير » فئ (البداية والنهاية) والبدر العينى فى (عقد الجمان) . وموجز حكايتها أن فقهاء بغداد تعرضوا لقوله فى اليد ديتها خمسمائة دينار ذهبا ، وتقطع فى السرقة ولو كان المسروق ربع دينار : بدمس مئين عسيجد وديت

ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض ما لنا الا السكوت له

وأن نعموذ بمولانا من النمار

« ولما عزموا على أخذه بها ، خرج من بفداد طريدا منهزما ، ورجع الى بلده ولزم منزله فكان لا يخرج منه » .

وابن كثير توفى سنة ٤٧٧ هـ ، والعينى توفى سنة ٥٥٥ هـ ، والخبر مرسل بلا اسناد ، فلسنا فعرف كيف وصل الى القرنين الثامن والتاسع ، ولم يذكره معاصرو أبى العلاء من المؤرخين والاخباريين ، كالثعالبي والخطيب البغدادي والباخرزي وابن الانباري . وجاء «الصفدي» بالبيتين — وهما من اللزوميات — دون أن يحدد للحادثة زمانا أو مكانا . على حين ساق « ابن حجر » المعاصر للعيني ، الخبر على صورة أخرى لا صلة لها بالرحلة البغدادية .

ونسأل أبا العلاء عن هذه المطاردة من الفقهاء ، فلا نجد لديه اشارة اليها أو كلمة عنها ، وانما الحديث عنده عن مطاردة أخرى من نفسه ، ألحت عليه فى الاياب ، وحاول عبثا أن يطاولها أو يتجاهلها ، ثم لم يجد مفرا من الاستسلام حين لم تعد تجدى مطاولة أو عناد .

وأملى من رسالته الى أهل المعرة ، عند انصرافه من العراق : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب الى السكن المقيم بالمعرة شملهم الله بالسعادة ، من أحمد بن عبد الله بن سليمان ، خص به من عرفه وداناه ، سلم الله الجماعة ولا أسلمها ، ولم شعثها ولا آلهها .

(أما الآن فهذه مناجاتي اياهم منصرفي عن العراق ، مجتمع أهل الجدال وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت المجدال وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت المجدال وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت الحداثة فانقضت المجدال وموطن بقية السلف ، بعد أن قضيت المجدال وموطن بقية المجدال وموطن المجدال وموطن المجدال وموطن المجدال وموطن المجدال المجدال وموطن المجدال وموطن المجدال وموطن المجدال وموطن المجدال المجدال وموطن المجدال ال

وودعت الشبيبة فمضت ، وحلبت الدهر أشطره وجربت خيره وشره ، فوجدت أوفق ما أصنعه فى أيام الحياة ، عزلة تجعلنى من الناس كبارح الأروى من سانح النعام . وما ألو ت. نصيحة لنفسى ولا قصرت فى اجتذاب المنفعة الى حيزى . فأجمعت على ذلك واستخرت الله فيه بعد جلائه على نفر يوثق بخصائلهم ، فكلهم رآه حزما وعد ه اذا تم رشدا . وهو أمر شرى عليه بليل ، قضى ببقة . ليس بنتيج الساعة ولا ربيب الشهر والسنة ، ولكنه غذى الحقب المتقادمة وسليل الفكر الطويل ..

« وما سمحت القرون بالاياب حتى وعدتها أشياء ثلاثة : نبذة كنبذة فتيق النجوم » وانقضابا من العالم .. وثباتا فى البلد ان حال أهله من خوف الروم ..

« وأحلف ما سافرت أستكثر من النشب ولا أتكثر بلقاء الرجال ، ولكن آثرت الاقامة بدار العلم فشاهدت أنفس مكان لم يسعف الزمن باقامتى فيه . والجاهل مغالب القدر ، فلهيت عما استأثر به الزمان

« ويحسن — الله — جزاء البغداديين ، فلقد وصفونى بما لا أستحق ، وشهدوا لى بالقضيلة على غير علم ، وعرضوا على أموالهم عرض الجد ، فصادفونى غير جذل بالصفات ، ولا هش الى معروف الأقوام . ورحلت وهم لرحيلى كارهون ، وحسبى الله وعليه يتوكل المتوكلون » .

والرسالة صريحة في الكشف عن مطاردة من قسمه - لا من

فقهاء بغداد أو غيرهم — طال عناؤه بها وتفكيره فيها ، حتى انسحب والقوم لرحيله كارهون . وسنقرأ فى رسالته الى خاله بعد قليل ، أنهم أظهروا الحزن لفراقه ، وتشبثوا به ، وودعوه باكين ، وكان أشد منهم حزئا على فراق بغداد وأصحابه بها . وقال يودعها ويودعهم من قصيدة مطولة بالسقط :

نبی^و من الغــــربان لیس علی شرع

يخبرنا أن الشعوب الى الصــــدع

صحابة موسى بعد آياته التسع

كأن بفيه كاهنا أو منجما

يحددثنا عما لقينا من الفجدع

أودعكم يا أهل بغداد والحشا

على زفـرات ما ينين من اللــذع

وداع ضـناً لم يستقل وانسا

تحامل من بعد العشار على ظلع

فبئس البديل الشام منكم وأهله

على أنهم قــومى وبينهــــم ربعى

لا زودونی شـــربة ولو اننی

قدرت ، اذن أفنيت دجلة بالجرع

أبِيت ملم أطعم نقيع فراقكم

مطاوعة حتى غلبت على النشميع

البست حدادا بعدكم كل ليلة

من الدهم، لا الغر الحسان ولا الدرع

أظن الليــالى وهى خـود غوادر

بردعى الى بغداد ضيقة الذرع

وكان اختياري أن أموت لديكم

حميدا ، فما ألفيت ذلك في الوسع

فليت حرمامي حمَّ لي في بلادكم

وجالت رمامى فى رياحكم المرسع

فدونكم خفض الحياة فاننا

نصبنا المطايا بالفلاة على القطع

* * *

وحدد « أبو العلاء » تاريخ انسحابه من بغداد باليوم والشهر والسنة « عام أربعمائة ، لست ليال بقين من رمضان » فأعفى مؤرخيه وأعفانا من التخبط فى متاهة المرويات .

كما حدد طريق الاياب:

سلك طريق الموصل وميافارقين ، ثم نزل بالحسنية ووصل بعدها الى آمد . وقد مر فى طريقه بطرف حلب الشهباء فلم يدخلها — وفيها أخواله — اصرارا على ما اعتزم من عرلة وانفراد .

وكانت الرحلة شاقة مضنية فيما وصف ، جمعت الى أخطار الطريق وعناء السفر ، أثقال انكساره وعبء همومه النفسية ،

وأعوزها الأمل الذي كان يحدوه فى طريق الذهاب ، فيعينه على مشاق الرحلة .

وبعض مؤرخيه ، يذكر من حديث ايابه أنه مر بموضع فى الطريق فطأطأ رأسه ، ولما سئل فى ذلك قال : أما هاهنا شجرة ? وكان قد مضى على مروره بهذا الموضع عام وبعض عام ، وما يزال يذكر قولهم له : طأطىء رأسك !

فان صح الخبر ، فهذا هو يفعل من تلقاء نفسه ، فيسمع أن الشجرة قد اجتثت من موضعها وما عاد فى حاجة الى أن يحترس. لكن آثار هزيمته لم تُجتث من نفسه ، فليطأطىء رأسه مقرا بها ، مستسلما لما تصنع به الأيام والليالى ..

بلا عناد ولا مكابرة!

واذا اتهمنا خبر الشجرة 4 فلدينا على كل حال ما يغنينا عنه ، من حديث لأبى العلاء عن رحلته ، سجله فى رسالته الى خاله أبى القاسم على ، وكشف به عما كان يضنيه ويرهقه من آثار الهزيمة والانكسار:

« وجدت بغداد كجناح الأخيل ، حسن وليس فيه ما حمل : ان العراق لأهلى لم يكن وطنا

والباب دون أبى غسان مسدود

« لنفسى أقول: أعييتنى بأشر فكيف بدردر ، وعصيتنى من شب الى دب . ليس بعشك فادرجى ، هذا أحق منزل بترك ، الصيف ضيعت اللبن ، الربيع أغفلت الكمأة ، وعلى المفازة أرقت السقاء ، عودى الى مباركك ..

« وكنت ظننت أن الأيام تسمح لى بالاقامة هناك ، فاذا الضارية أحجأ بعراقها ، والأمة أبخل بصربتها ، والعبد أشح بكراعه ، والغراب أضن بتمرته . ووجدت العلم ببغداد أكثر من الحصى عند جمرة العقبة .. ولكن على كل خير مانع ..

اذا لم تستطع شميئا فذره وجماوزه الى ما تستطيع يكفيك ما بلغك المحل. ان عجز ظرِل عن شخصك فلا يعجزن عن عضو منك ...

« وكلما عرضوا على حاجة أعرضت عن تكليف المشقة ، لأنى أعتقد حكمة زهير فى قوله :

ومن لا يزل يستحمل الناس نفسه

ولا يعفها يوما من الذل يسأم ولا يعفها يوما من الذل يسأم ولو علمت أنى أرجع على قروائى ، لم أتوجه لهذه الجهة ، ولكن البلاء موكل بالمنطق ، والخيرة مغيبة .. لا يدرى الرجل بم يولع هرمه ، ولا الى أى أجمة يسوقه جده : (ولو كنت من الخير وما مستنى السوء) .

« ورعاية الله شاملة لمن عرفته ببغداد ، فلقد أفردوني بحسن المعاملة وأثنوا على فى الغيبة ، وأكرموني دون النظراء والطبقة . ولما آنسوا تشميري للرحيل وأحسوا بتأهبي للظعن ، أظهروا كسوف بال وقالوا من جميل كل مقال ، وتلفعوا من الأسف ببرد فشيب ، وذرفت عيون أشياخ شيب ، فلا اله الا الله ، أي نابتة ليست لها راعية ...

« وأمروني لرغبتهم في صقبي منهم بأمور تنهي عنها القناعة وتكف دونها العادة ..

على حين أن ذكيت وابيض مفرقي

أسلم الذي أعييت اذ أنا أمرد أماوي ما يغنى الثراء عن الفتى

اذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر والله يحسن جزاءهم ، ان كان ما فعلوه حفاظا فهو منة عظيمة ، وان كان نفاقا فهو عشرة جميلة . وانصرفت وماء وجهى في سقاء غير سرب ، ما أرقت منه قطرة في طلب أدب ولا مال . ومنذ فارقت العشرين من العمر ، ما حدثت نفسى باجتداء علم من عراقي ولا شامي (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له

والذي أقدمني تلك البلاد مكان دار الكتب بها: ولست وان أحببت من يسكن الغضي

بأول راج حاجــــةً لا ينالهـــــــــــا

شرفا لذلك منزلا ، وللساكنين به نفــرا ، ولماء دجلة واديا ومشربا :

وانى وتهيامي بعيزة بعيدما

وليا مرشدا).

تخليت من حبــل الهـــوى وتخلت ِ

لكالمبتغى ظل الغمامة كلما

تبوأ منها بالمقيل اضمحلت وكنت اذا خبرت رجلا بمسيرى بانت فيه كآبة ، وبدت عليه كبوة ، فكتمت ذلك عنهم كتمان المرأة ضرتها بالغيب ما فى جسدها من سوء وعيب ، فلما علق حرباء البين تتضبته ، ووقف صرد الفراق موقفه ، كنت واياهم كأبى قابوس وبنى رواحة : قال لهم خسيرا وأثنى عليهم

وودعهم وداع أن لا تلاقيما

وسرت عن بغداد لست بقين من شهر رمضان ، سيرا تنحط الله ونئط نسوعه وتوقع الغرق سفنه .. القمرات ثم ينجلين ! ومررت بطرف الشهباء لأنى سلكت طريق الموصل وميافارقين ... وردت مياها ملحبة فكرهتها

فسقيا لأهلى الأولين ومائيسا

« ... ولما نزلنا بالحسنية تساوى حامل المال وحامل الرمال، وقل بلاء الغادى أين قال (١) ، والرائح أين عرس وبات . فلم نزل كذلك حتى بلغنا آمد ، ثم عادت السبيل الى غوائلها ...

« ولما فاتنى المقام بحيث اخترت ، أجمعت على اتفراد يجعلنى كالظبى فى الكناس ، ويقطع ما بينى وبين الناس ، الا من وصلنى الله به وصل الذراع باليد والليلة بالغد » ..

وتلفتنا هنا نغمة التواضع فى اعتراف أبي العلاء « بالنظراء والطبقة » وعدم احتفاله بصفات التكريم ، وقد كان صوته قبل الرحلة ، يجلجل بمثل ما سمعت من فخرياته ..

وقد سجل فى الرسالة ، وفى رسالته الأخرى الى أهل المعرة، شهادة العاصمة له بالفضل والعلم ، بما يؤكد لدينا أن رحلته لم

⁽١) من القيلولة.

تكن لهذا وحده ، وانما كانت الشهادة المرجوة بعض ما يتعلق به فى معركته مع نفسه » عندما أراد أن يستبين مدى طاقتها على المضى فى المقاومة والتحدى والاستعلاء ، والا فلو كانت شهادة بغداد كل غايته ومبتغاه » لأرضاه ظفره بها ، ولما عاد الى المعرة مهزوما مطاردا ، لا من فقهاء بغداد » ولكن من نفسه !

وأبو العلاء يسجل هنا ، اعترافه الصريح بأفه لم يزهد فى بغداد كما زعم بعض دارسيه ؛ ولم ينصرف عنها طيب الخاطر ؛ وانما أحبها حبا صادقا وتمنى لو أسعفه الزمان على المقام بها ، لكن أعوزته الحيلة والوسيلة . وأدرك بعد فوات الأوان أنه لم يتزود لمجتمع العاصمة بالزاد الصالح والعدة الملائمة . فلقد شب عن الطوق ، وما عاد فى استطاعته أن يغير طبعه ويطوع نفسه لغير ما خلقت له ، ويروضها على غير ما جبلت عليه ، وهو كما قال فى رسالته الى خاله : وحشى الغريزة انسى الولادة . وقد كلفوه فى رسالته الى خاله : وحشى الغريزة انسى الولادة . وقد كلفوه هناك ما ليس من طبعه ، وأرادوا أن يحملوه على أمور « تنهى عنها القناعة وتكف دونها العادة » وساموه ، وقد جاوز سن الفتوة والشباب ، ما أعياه أن يسام وهو أمرد ...

وسيظل يذكر بغداد ، ويلتفت اليها من وراء أسوار عزلته ، ويحن الى من ترك هناك من صفوة الأصحاب . فيقول من قصيدة أرسلها الى صديقه أبى القاسم بن المحسن التنوخى :

يا عارضا راح تحدوه بوارقه

للكرخ سُلمت من غيث و تجييسا

لنا ببغداد من نهوى تحيت

فان تحملتها عنا فحييا

يا ابن المحسن ما أنسيت مكرمة

فاذكر مودتنــــا ان كنت أنســـيتة

سقيا لدجلة ، والدنيا مفرقة

حتى يعود اجتماع النجم تشتيتا

وبعلمها لا أريد الشرب من نهسر

كأنسا أنا من أصحاب طالوتا (١)

رحلت لم آت « قرواشا » أزاوله

ولا «المهذب» أبغى النيثل تقويتا (٢)

والموت أحسن بالنفس التي ألفت

عز القناعة من أن تسأل القـوتا

بيتة الزمان. حبالي من حبالكم

أعــزز على " بكون الوصــل مبتوتا

أعثدًا من صلواتي حفظ عهدكم

ان الصلاة كتباب كان موقبوتا

وقال فى قصيدته الى خازن دار العلم ببغداد:

رجـوت لهم أن يقربوا فتباعــدوا

وأن لا يشطوا فى المزار فقـــد شطوا

⁽١) يشير الهالآية الكريمة : (فلما فصل طالوت بالجنود قال أن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن للم يطعمه قانه منى (٢) قرواش : اسم والى أمر بغداد ـ والمهذب : وزيره .

خلیلی لا یخفی انحساری عن الصبا فحالاً ا

فحاًلاً اســـارى قد أضر ً بي ّ الربط ولى حاجــة عند العـــراق وأهـــله

فان تقضياها فالجــزاء هو الشرط

سكلا علماء الجانبين وفتية

أبنوهما حتى مفارقهم شسمنط

أعنب دهم علم السلو السيائل

به الركب لم يعسرف أماكنه قسط

وهل ينشطني من عقالي اليكم

رضا زمنى ، أم كل شيمته سخط

وان خلطتني بالـــتراب منيــــــة

فبعـض ترابى من مودتكم خــلط

وكتب بعد سنين يذكر أحد أصدقائه ، بأيام بغداد ، ومنزله القطعة :

أذاكر أنت عصرا مسر عنسدك لى

فليس مشلى بناس ذلك العصرا

أيام واصلتني ودا وتكرمة

وبالقطيعــة دارى ، تحضر النهــرا

والآن أشرح أمرى غير معتمد

فيه الاطالة كيما تعلم الخبرا

لمُسَادًا الزمان وأشوتني حسوادته

حتى مللت وذمت نفسي العمسرا

وحُلْتُ کلی سوی شیب تجاوزنی

ولم يبيض على طول المدى الشعرا جنيت ذنب وألهى خاطرى وسن عشرين حولا ، فلما تُبِّه اعتذرا

* * *

فماذا صنعت بغداد بمن قصد اليها في عز رجولته ، مشوقا راجيا متعلقا بأذيال الطموح مستبسلا في المقاومة ، فردته — على حيه لها — إلى عزلة صارمة ، مهيض الجناح مكسور الخاطر ضائع الحيلة ?

لم تنعل شيئا الا أنها ردته الى نفسه ، ونبهت وجدانه من « غفلة الوسن » كما قال ، وكشفت له عن عقم محاولته الهروب من ذاته ، وتحدى محنته!

ولم شتات طموحه وأشلاء أمانيه ، وركب راحلته ملقيا زمامها الى من يقوده عائدا به من حيث جاء ..

وأمضى أيامه ولياليه فى طريق الاياب ، يجتر ذكريات مقامه ببغداد . ويطيل التفكير فيما هو مستقبل من عزلة وقيود ، موزع الخواطر بين حزن على فراق « أنفس مكان لم يسعف الزمان باقامته فيه » وشوق الى الراحة من أوهام الطموح وشطط المكابرة وأكاذيب المنى ، ولهفة على لقاء أمه الحبيبة التى بلغه أنها مريضة بالمعدة ...

ويرتجف قلبه بين أضلعه اشفاقا من المخبوء له فى الغيب المضمر . وربما ألم به الكرى فساورته رؤى يقيسها على ما كان

من سوء بخته ، فلا يرى فى الجميل منها الا أضغاث أحـــلام ، أما المفزع المخيف فنذير شر واقع لا محالة : الله أشـــكو أننى كل ليـــــلة

اذا نمت لم أعدم خواطر أوهام

فان كان شرا فهو لابد واقع

وان كَان خــيرا فهو أضغاث أحلام

حتى الرؤيا ، لم يفته تسجيلها ، ولا كتم عنا أمرها ..

ولقد كان فيما رأى من أحلام الكرى ، أن أحد نواجذه سقط ، وذكر أمه المريضة لكنه نحى الخاطر الرهيب ، وقد استعظم أن يكون تأويل رؤياه موت أمه ، وعد ذلك ضلالا ما بعده من ضلال ، فأين الناجذ من الأم ، وانه لواجد عوضا عن سن سقطت ، أما الأم فلا عوض عنها ..

ولكن خواطره تركزت حول أمه ، وهو يقطع المرحلة الباقية من زحلة الاياب ..

موست إلأم

« يا سلوة الأحباب موعدك الحشر .. موعد والله بعيد ! » : مضت وقد اكتهلت فخلت أنى

رضيع ما بلغت مدى الفطام

مألت متى اللقاء فقيل حتى

يقوم الهامدون من الرجسام

فليت أذين يوم الحشـــر نادى

فأجهشت الرمام الى الرمام الرمام (سقط الزند)

آب الضرير الى منزله مثخنا بالجراح ، ليجد فى انتظاره طعنة مصمية ، أعدتها له الدنيا تحية الوصول !

غال الموت أمه قبل أن يلقاها ، فرحلت عن الدار بلا وداع . واذا لم يكن قد بقى فى كيانه موضع لسهم ، فان الطعنة المجديدة هزت الكيان الجريح بفرط ضراوتها ، وردته أشبه بطفل رضيع يتيم ، فقد سر وجوده ووسيلة حياته ..

وليت الصدمة مع ذلك أذهلته لينجو بالذهول من فادح ألمه وأساه! لقد تلقاها بملء وعيه ، وأبى أن يتقبل فى فقيدته العزاء ، وانطلق صوته فى اثر الراحلة:

سمعت نعيها صمى صمام وان قال العمواذل لا همام وأمتنى الى الأجمعاث أم وأمتنى الى الأجمعات أم الماء أن ما والذا أم

یعــز علی آن ســـارت أمــــامی وأكبر أن يرثيهــــــا لســـــانی

بلفظ سالك مجرى الطعمام

کأن نواجـــذی ردیت بصـــخر

ولم يمسرر بهن سسسوى كلام

مضت وقد اكتهلت فخلت أنى

رضيع ما بلغت مدى الفطام

فيــا ركب المنــون أما رســـول

سألت متى اللقاء فقيل حتى

يقوم الهامدون من الرجسام

طفقت أعده أعمسار السسمام

فليت أذين يــوم الحشــــر نادى

فأجهشت الرمام الى الرسام

* * *

ولا نعلم على وجه اليقين ، ما اذا كان أبو العلاء قد زار قبر أمه قبل أن يدخل محبسه ، أم أنه بدأ ينفذ قراره بلزوم مسكنه من اللحظة الأولى لوصوله الى المعرة ? وربما استبعدنا أن يتلقى النبأ الفاجع اثر وصوله ، فلا يسعى الى قبرها محييا مودعا الى لقاء لا يدرى متى يحين أوانه ، الا أن يكون امتناعه عن زيارة القبر ، تعبيرا عن يأس غليظ فادح ، وشعور بعقم المسعى الى جدث أصم ، يضم الجسد الهامد لمن كانت ملء حياته ، فصارت رمة بالية ، لا تحس طيف زائر ولا تعى صوت داع : وقفت على أجهدا شهم وسسألتهم

فما رجعوا قولا ، ولا سألوكا

* *

ادا الحسي ألبس أكفسانه

فقيد فيني اللبس واللابس

وبسلى المحيسا ، فلا ضاحك

اذا سـر ً دهـر ولا عـابس

ويحبس في جـــدث ضــيق

وليس بمطلقيه الحابس

يحاور قوما أجهادوا العظات

وما فيهم أحمد نابس

* * *

ولم يسمعوا قولاً 4 أمن صمم بهم

ولم يفهموا ركبنعا كأنهم خثر س

« سلم الله عليكم أهل ديار ، لا يشعرون بتبلج الصبح ولا ترحل النهار . أشتاق اليكم والى من أشتاق ? لا الأرواح منكلمة ، ولا الأجساد ملتئمة ، ولا المنازل برحاب ...

« كيف أصبحتم أهل المنازل الدارسة ? ان ما أصابكم للخطب الجليل .. يهتف بكم الصائح فلا يجاب » .

« ما فعل التراب بالجثث ؟ فعل بها فعل المجتث . (الفصول والغايات)

* * *

وانكمش فى منزله الذى قرر أن يكون له سجنا ما عاش ك وبدأ فأملى الى خاله « أبى القاسم على » بحلب رسالته التى استهلت بالتفجج واللوعة على الراحلة ، وضربت يوم الحشر للسلو موعدا .

« كتابى أطال الله بقاء سيدى .. من معرة النعمان ولكل نبأ مستقر . وردتها بعد سآمة ورود كعب بن مامة ، فانا لله وانا اليه راجعون ، وله الحمد ممزوجا به الدمع ، مستكنا له من الوجد السمع . وصلى الله على سيدنا محمد وعترته ، صلاة يثقل بها لسانى حزنا ، وترجح فى المحشر قدرا ووزنا . ثم أذكر قصصى بعد ذلك :

ألا ليتنى والمسرء ميت وما تغنى عن الحدثان ليت « رحمك ، الله من ساكنة رمس ، أصبحت حياتك كأمس : فان ينقطع منك الرجاء فانه

سيبقى عليك الحزن ما بقى الدهر

لا آمل بعدها خيرا ، ولا أزيد في المحن الا ايضاعا وسيرا : صلى الاله عليك من مفقودة

اذ لا يلائسك المكان البلقسع

أني طلت ، وكنت جـد فروقة

بلدا يمر به الشجاع فيفرع

لا بارك الله في الدنيا اذا انقطعت

أسباب دنياك عن أسباب دنيانا

يا سلوة الأيام موعدك الحشر ، موعد والله بعيد! لا سلوة حتى بئوب عنزى الى القرظة ، ويرجع المحاذ الى الحيرة ، ويبعث بين من مكة! لو لم تكن الآجال ذبرا - - أى كتابا — لوجب أن أقتل بها صبرا . على أنى والله قد أعلمتها أنى مرتحل وأن على ذلك جاد مزمع ، فأذ بت فيه . وأحسبها ظنته مدقة الشارب ووميض الخالب ، ولكل أجل كتاب . وحزنى لفقدها كسيم أهل الجنة كلما نقد جدد ، وشرحه الملال سامع وافناء زمان ... » .

*

وتذكر المحزون — بعد حين — رؤيه التي سلفت ؛ وهذا هو تأويل الرؤيا ، في الواقع واليقظة ، لا في خاطرات الوهم وهواجس الأحلام ، وانه ليفتقد العزاء على تطاول الأيام ، ولا عزاء الا فيما يرجو من لحاقه بأمه ، حيث يؤنسه أن يدفنه آله ، إلى ظل قبرها :

خملو فؤادي بالمودة اخمالال

ولى حاجة عند النية: فتكها

بروحي والأهــوال مذكن أهوال

اذا مت لم أحف ل ، أبالشام حفرة

حوتنى أم ريم بريمان منهـــال

دعا الله أمّا ليت أني أمامها

دُعيتُ ولو أن الهــواجر آصــال

مضت وکأنی مرضع ۵ وقد ارتقت

بي السن حتى شكل فودي أشكال

أراني الكرى أنى أصبت بناجذ

ألا ان أحسلام الرقاد ضسلال

أجارحتى العظمى تشبه ساهيا

بسين لها في ساحة الفه أمشال

وبين الردى والنوم قربى ونسبة

اذا نمت لاقيت الأحبة بعدما

طوتهم شـهور فى التراب وأحوال

* * *

وبموت أمة ، بدأ احساسه العميق بأنه أمسى أشبه بغصن مجتث ملقى ، بلإ جذور ولا فروع . فلقد كان من بين ما قر عليه عزمه وهو ينسحب الى محبسه ، ألا يتزوج ولا يلد ، كيلا يبتلى ولدا له بمحنة الوجود . وها قد مضى أبواه ، ولن يلبث ماء الحياة أن يجف فيه وينضب ، فيصير الى حذف وادغام :

فصرفنى وغيرنى زمان سيعقبنى بحذف وادغام وسيظل هذا الخاطر يلح على وجدانه فى طور عزلته ، فيتمثل نفسه — فى اللزوميات — نبتا مر عليه يوم وليلة منفضين من الزاد ، فاستأصلاه حَزَّا:

كأنى نبت ، مر يوم وليللة على وكانا منفضين فجزاني

وظل حزنه على أمه كلما نفد جدد كما قال .. وأوغل الجرح فى أعماقه ، لتنكأه الرزايا تلم به من حين الى حين ، فيخطف الموت أخاه الأصغر أبا الهيثم سنة ٤٠٥ ، ويتتابع الراحلون من الأهل والأحباب ، الى وادى العدم ومتاهة النسيان :

وصوت أبي العلاء في أثرهم ، يرجع في شجن وأسى :

« يا قلب ، لعل أسودك زنجى من ولد حام .. ألا تبتئس لأول من فعل معك الجميل ? ألا تجزع لتقوض الأقربين ? يا شمال ، ألم يحزنك شلل اليمين ? أقمت وتحمل الناس وان لحاقى بالظاعن لوشيك . عند الله أحتسب ما رزئت من أهل ولقيت من هم كاد الغربيب له يشيب ، وتعب رسخ ألمه فى الأعضاء ..

« يا معشر أهلنا الصالحين ، بئس القوم نحن ! لم نوفكم الواجب من الوفاء : شربنا بعدكم البارد ولبسنا ناعم اللباس ، وأظللتنا الجدر وأفنية الدور ! لو كنا أهل حفاظ ، عفنا بعدكم النطف العذاب . . » .

(الفصول والغايات)

ويجأر فى اللزوميات :

لعمرى لقد وكل الظاعنون أقول وقد طال ليلى على"

بقلبى ُ نجمــا بطىء الغـــروب أما لشباب الدجى من مشيب !

وما كان أطول ليله!

من سنته الرابعة بدأ ذلك الليل ، ممتدا الى آخر العمر ..

وقد خيل اليه حينا فى ميعة الصبا وفتوة الشباب ، أنه مستطيع أن ينسخ ذلك الليل بنهار متألق الضياء ، وأن يجعل سراه فى خضم الظلمة ، تحليقا مع النجوم فى مسبح الفلك ..

حتى آب من رحلته الى بغداد وقد انجابت عنه غشاوة الوهم، وأعوزه ما تعلل به فى طريقه الى العزلة ، من الأنس بقرب أمه! وأوحش ليله واشتدت وطأته ..

وتتابعت رسائله من عزلته ، وما أنشد من لزومياته وأملى من فصوله وغاياته ، والغفران وملقى السبيل ، صادقة التعبير عن ذلك الأديب الانسان الذى كشف له الغطاء عن نفسه ، واستروح الى الافضاء بمطوى همومه ومواجعه ..

وتلاشت نغمة التعالى المسرف والتفاخر الجامح والطموح المشتط والمكابرة العنيدة ، لنسمعه يقول فى (الفصول والغايات) وقد بدأ يمليها بعد عودته من بغداد :

« ما أضيق على دنياى ! وأنت — مولاى — المفزع اذا بطل كل احتيال » . « ان جناحي لمهيض ! طرِت ۖ في الصعيد فوقعت ُ غير َ بعيد ، والله منهض المنهاضين » .

« الله ملك الملوك 4 وأنا معترف مقر ، أن شهد الدنيا مقر ، وأن غنيها مفتقر . أعوزنى فيها مسكن آوى اليه ، وتبوأت الناسجة — أى العنكبوت — بين المثاب » .

« أضحك فلا ضحكت ، وأنا بالبكاء حقيق مما كان ويكون » .

« أرتفع والقدر يكبنى ، يألبنى دائما ويلبنى ، كم أستنسر وأنا من البغاث! » .

وينشد في اللزوميات :

ـــــــــا فانى قد أطلت المقـــــــام

لم أدر ما نجمي ولكنـــه

فی النحس مذ کان ، جری واستقام

فلا صلحيقي يترجى يسدى

ولا عــدوى يتخشى انتقـــــــام

والعيش سيقم للفتى منصب

والمسوت يأتى بشمشفاء السقام

* * *

رمانی من له وتری وقوسی

وكفي ، والسمام ، فكيف أرمى

* * *

اذا طفئت في الشرى أعسين

فقــــد أمنت من عمى أو رمــــد

* * *

فيا دار الخسار ألي خلاص

فأذهب في الجنوب أو الشمال

وظلم أن أحساول فيك ربصا

ولم أخرج اليك ِ برأسمال

* * *

ملام لنفسى حق عندى لمثلها

وكنت حقيقا عندها بمسلام

واظلام عين بعده ظلمة الثرى

فقل فى ظلام زيد فوق ظلام

* * *

ان يرحل الناس ولم أرتحل

فعن قضــاء لم يفـــوض الى"

خُلِقت من بعد رجال مضوا

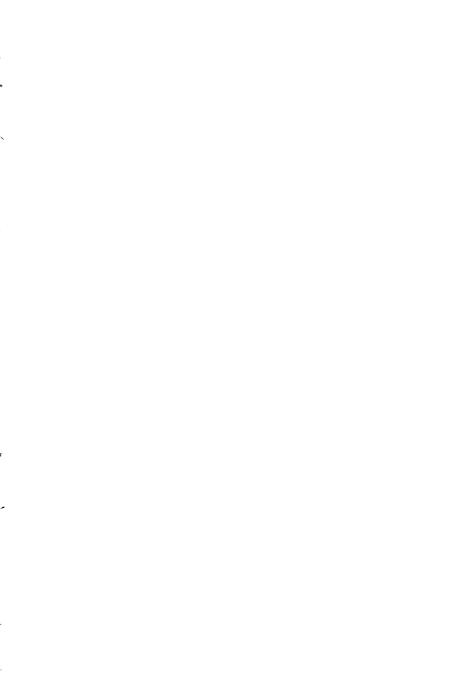
وذاك شمير لي وشميس على

لشد ما تغير ذلك الشاب الذي عرفناه في الطور الأول من حياته " قبل أن يرحل الى بغداد !!

الفضل الإبع

المرحلة الثانية معرك المحاهدة

رهبين المحبسين موسيائم الدهب را المحبسين المحبسائم الدهب المستراع المستراع الأدبيب المحبسرة واتهام المحبسرة واتهام



رهب لمحبسان

هـذا زمان ليس فى أهـله الالأن تهجــره أهـل. حان رحيـل النفس عن عالم ما هو الا الغـدر والجهـل (اللزوميات)

بدأ من اللحظة الأولى ينفذ ما فرضه على نفسه من قرار بالعزلة عن الناس والانقطاع عن الدنيا والحرمان من متعها ولذاتها، فيلزم بيته لا يبرحه ، ويمتنع عن الزواج ، ولا يأكل اللحوم والبيض والألبان ، بل يقنع من الطعام بما يمسك رمقه مما تنبت الأرض ، ومن اللباس بما يستره من خشن الثياب ، ومن الفراش بحصير من بردى أو لباد ، وأن يروض نفسه على الزهد فى الدنيا والسلو عنها ، كيما يهون عليه احتمال محنة الوجود ووطأة الحرمان .

ذلك ما استقر عليه عزمه وأجمع عليه أمره ، منذ انسحب نفسيا ثم جسميا من بغداد ، فكيف كان مسلكه ، وماذا أطاق من ذلك كله ، وماذا أعياه أن يطيق ?

* * *

أما العزلة ، فالتزم بها من جانبه الى أقصى المدى : لبث تسعا وأربعين سنة فى محبسه بمعرة النعمان ، لم يغادره الا مرة واحدة

م تتكرر ، حين حمله قومه على الخروج ليشفع لهم لدى « أسد الدولة صالح بن مرداس : صاحب حلب » وكان قد خرج الى المعرة ليخمد حركة عصيان من أهلها ، سببها — فيما نقل ابن العديم والقفطي والذهبي والصفدي -- « أن امرأة دخلت جامع المعرة صارخة ، تستعدى المصلين على صاحب الماخور الذي أراد اغتصابها . فنفر كل من في الجامع ، وهدموا الماخور ونهبوا ما فيه . وكان أسد الدولة في نواحي صيدا فأسرع الى هناك ، وعسكر بظاهر المعرة وشرع في قتالها ورماها بالمنجنيق ، واعتقل من أعيانها سبعين رجلا ، اقامة لهيبة السلطان . فلما رأى أهل المعرة ألا قبل لهم بذلك ، سعوا الى أبي العلاء يسألونه الخروج الى أسد الدولة فى معسكره بظاهر المعرة ، والشفاعة لهم عنده . وما زالوا به حتى خرج متوكئا على يد قائد له ، وقيل لصالح : ان باب البلدة قد فتح وخرج منها رجل يقاد كأنه أعمى . فقال : هو أبو العلاء 4 أوقفوا القتال . وأذن له وأكرمه وعرفه شوقه الى لقائه ، ثم سأله : ألك حاجة ? فلما ذكر له أنه جاء شفيعا لقومه، أجاب صالح: قد وهبتها لك يا أبا العلاء - يعنى المعرة . ثم استنشده فأنشد ارتجالا:

تغيبت في منزلي برهـــة فلما مضى العمــر الا الأقل بعثت شفيعا الى صــالح فيسمع منى ســجع الحمام

ستير العيوب فقيد الحسد وحم لروحى فراق الجسد وذاك من القوم رأى فسلم وأسمع منه زئير الأسلم

قال صالح: بل نحن الذين تسمع منا سجع الحمام ، وأنت الذى نسمع منه زئير الأسد. ثم أمر بخيامه فوضعت ، ورحل عن المعرة ».

وعاد أبو العلاء الى محبسه وهو ينشد ردا على اعتراف القوم بفضله:

نجى المعرة من براثن صمالح

رب بداوی کل داء معضــــل ما کان لی فیها جناح بعوضة

الله ألحقهم جناح تفضيل

والشعر من اللزوميات . وفي الديوان كذلك قصيدة أخرى، في هذه الحادثة ، منها :

أتت جامع" يوم العروبة جامعا

تقص على الشــهاد بالمصر أمرها

فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها

لخِلت سماء الله تمطر جمرها

فهد وا بناء كان يأوى فنساءه

فواجب ' ألقت للفواحش خُمْسُ هَا

ألفنا بلاد الشام الف ولادة

نلاقى بها ســود الخطوب وحمرها

فاني أرى الآفاق دانت لظـالم يغـر بغاياها ويشرب خمرها

ولو كانت الدنيا من الانس لم تكن

سوى مومس أفنت بما ساء عمرها

أما زمن الحادثة ، فبين عامى ٤١٧ ، ٤١٨ هـ . أى بعد نحو ثمانى عشرة سنة أمضاها فى محبسه لم يبرحه ، ولن يبرحه منذ عاد من شفاعته لدى صالح ، الى أن خرج من الدنيا بعد بضع وثلاثين سنة ، محمولا على الآلة الحدباء الى قبره .

ولكن الذى لم يستطعه ، هو أن يحول دون اقتحام الناس عليه عزلته ، ولقائهم اياه فى محبسه .

وقد حاول مخلصًا ، أن يصرفهم عنه بكل ما أطاق من جهد ، وأفلح فى ذلك الى حين ، فما سمح لأحد بالدخول اليه ، الا لخاصة أهله الأدنين . ويقول ابن العديم :

« أقام مدة طويلة فى منزله مختفيا لا يدخل عليه أحد . ثم ان الناس تسببوا اليه — يعنى التمسوا الأسباب — وألحوا فى طلب الشفاعة لديه من أقاربه الأدنين » ثم نقل قصيدة لأبى صالح محمد بن المهذب ، كتبها الى أبى الهيثم ، متوسلا به الى أخيه أبى العلاء ، ومنها :

أراها أبت الا النــوى بي مغــرما

ولو رضيت[.] هجــرانها لكفـــــان*ى*

تضن باهمداء السلام تجاهلا

ولو علمت أن الرقاد جفساني

هبى هجعة كيما أرى الطيف مرة

بهـــا تحت أرواق الدجي ويراني

لعلى أشفى علتى بلقائه

فكم من خليــل زارني فشـــفاني

وود كريم لو ينــال خلائقـــا

هى النجم زادته عملوً مكان نخمير قلبي والحشما ، ثم أنه

ثوى بمحل عن سواه مصان أبا الهيثم اسمع ما أقول فانسا

تعمین علی ما رمت خمسیر معان

قریضی هجاء ان حرمت مدیحه

لأروع وضاح الجبين هجسان

أطل على بغداد كالغيث جاءها

به سعد نجم فى أجـــل أوان

فضاها ثياب المجد وهي لباسها

وبدلها من شدة بليان

فياطيب بغـــداد وقد أرجت به

على بعدها الأطراف من أرجان

غدا بكم المجدد المضيء وانه

ليغمـــر من أضــوائه العمــران

نأى ما نأى والمـوت دون فـراقه

فما عــذره في النأي اذ هو دان

فكن حاملا منى اليه رسالة

تبين اليه في هضاب أبان

فان قال أخشى من فلان تشبها

فقـــل ما فلان عندنا كقـــلان

هو الخيل ما فيه اختالال مودة

فلا تخش منه زلة بضمان

فان خنت عهدا أو أسأت خليقة

ولم يك شـــأنى فى المودة شـــانى

فلا أحسنت في الحرب المساك مقبضي

یمینی ، ولا یسرای حفظ عنانی

لعل حيـــاتي أن تعــود نضــيرة

ل دیه کما کانت ، وطیب زمانی

والقصيدة لا تعنينا الا من حيث دلالتها على ما كان يعنيه أبو العلاء بقوله عند منصرفه من بغداد: « وأجمعت أمرى على عزلة وانفراد » ومبلغ صدقه فيما اعتزم ، فأبو صالح محمد بن المهذب ، من أعيان العصر فضلا وعلما وتقى ، وهو ابن عمة أبى العلاء ، ورفيق صباه وزميله فى الدرس ، فالقصيدة تقدم لنا شاهدا على أن باب أبى العلاء فى عزلته ، كان موصدا حتى على ذوى الرحم والقربى ، من أمثال أبى صالح الذى يمت الى الضرير المعتزل بأقرب الأسباب .

* * *

ورق قلب أبى العلاء لمثل ذلك التوسل الملح ، وكرهت له مروءته ألا يستجيب لدعاء من وقفوا ببابه ضارعين . وفتح الباب، لا ليخرج منه أبو العلاء الى الناس ، ولكن ليدخل عليه الزائرون

من شتى أنحاء العالم الاسلامي ، فصار منزله الذى أراده سجنا له ، دارا للعلم يحج اليها الطلاب من أقطار المشرق والمغرب ، يقرأون عليه ويتعلمون منه ويأخذون عنه .

وفرغ للتدريس والاملاء ، فاذا خلا بنفسه فى غير أوقات الدرس ، فللعبادة والتأمل .

قال القفطي وابن خلكان:

« وأخذ عنه الناس ، وسار اليه الطلبة من الآفاق ، وكاتبه العلماء والوزراء وأهل الأقدار » .

وقال ابن فضل الله العمرى:

« وأخذ عنه خلق لا يعلمهم الآ الله عز وجل ، كلهم قضاة وأئمة وخطباء وأهل تبحر . واستفادوا منه ، ولم يذكره أحد منهم بطعن ، ولم ينسب حديثه الى ضعف أو وهن » .

وفى هذه المرحلة الخصبة الطويلة من عمره ، احتاج الى عدد من الكتبة الحذاق الأمناء ، يفرغون لكتابة ما يمليه ، واختص به نفر من الكتاب المجودين ، يدونون رسائله ومصنفاته ، ويكتبون عنه ما يمليه من الاجازات والسماع لمن يسمع منه ويستجيزه . وفى كتاب (الانصاف والتحرى) لابن العديم ، فصل فى ذكر هؤلاء الكتاب المختصين بأبى العلاء ، منهم :

ولدا أخيه أبى المجد محمد: أبو محمد عبد الله بن محمد ، وكان برا بعمه ملازما لخدمته والكتابة له ، ويقع بخطه من المصنف الواحد نسختان أو أكثر . وقد ولى قضاء المعرة على كره من عمه ، وكان مولده بالمعرة سنة ٧٩٧هـ . ووفاته سنة ٤٦٥ . وأبو الحسن

على بن محمد ، تولى قضاء المعرة وقضاء حماة سنة ٤٥١ هـ بعد اعتزال أخيه القاضى أبى محمد عبد الله ، وقد نسخ بخطة جميع أمالى عمه .

وابن أخيه أبى الهيثم: الشيخ أبو نصر زيد بن عبد الواحد المتوفى سنة ٤٤٢ ه. وكذلك ولده منافر بن زيد ، وقف بخطه كتبا من تصانيف أبى العلاء عم أبيه . تدل على فضلة وحسن نقله .

وجعفر بن أحمد بن صالح بن سليمان بن داود بن المطهر التنوخى ، وكان من أعيان كتاب أبى العلاء ، وقرأ عليه كثيرا من كتب الأدب ، وروى عنه « وكان خطه على غاية من الصحة والضبط » .

وابراهيم بن على بن الخطيب ، الذى اشتهر بالضبط والاتقان واجادة الخط . كتب معظم كتبه وتصانيفه ، كما كتب عنه في السماع عليه والاجازة عنه .

وأبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم المعرى ، وكان من العدول الأمناء الفضلاء ، تولى أوقاف الجامع بمعرة النعمان، « ولزم أبا العلاء وكتب مصنفاته بأسرها ، وربسا كتب من المصنف الواحد عدة نسخ ، غاية في الضبط » .

وولده أبو الفتح محمد بن على ، وكان كوالده ملازما لخدمة أبى العلاء والكتابة له .

وقد اعترف أبو العلاء بجميل كتَّابه ٥ فذكر في بعض شعره

ابن أخيه أبا محمد القاضى ، شاكرا له صادق بره وكريم فضله ، والاه عنى بقوله:

وقاض لا ينام الليل عنى وقوله:

أعبد الله ما أسدى جميلا سقتنى درها ، ودعت ، وباتت هممت بأن تجنبنى الرزايا كأن الله يلهمك اختيارى حمدتك فى الحياة أتم حمد أجباك ما تركت وأنت قاض

وطول نهاره بين الخصوم

نظیر جمیل فعلک غیر أمی تعوذنی ، وتقرأ أو تسمی فرمت وقایتی من کل همی فتفعله ولم یخطر بوهمی وأیسامی ذممت أسم ذم تعهد مقعد أعمی أصم

كما ذكر بالحمد والثناء ، كاتبه أبا الحسن على بن عبد الله فقال:

« لزمت مسكنى منذ سنة أربعمائة ، واجتهدت أن أتوفر على تسبيح الله وتمجيده الا أن أضطر الى غير ذلك . فأمليت أشياء وتولى نسخها الشيخ أبو الحسن على بن عبد الله بن أبى هاشم ، أحسن الله معونته ، فألزمنى بذلك حقوقا جمة وأيادى بيضا ، لأنه أفنى في زمنه ، ولم يأخذ عما صنع ثمنه ، والله يحسن اله الجزاء ويكفيه حوادث الزمن والأرزاء » .

أما ولده أبو الفتح بن على ، فقد صنف أبو العلاء كتابا باسمه عنوانه (المختصر الفتحى) كما اختصه بكتابه (عون الجمل) — آخر كتاب أملاه — وفيه شرح لبعض ما فى (كتاب المجمل) لأبى اسحق الزجاجى ..

وسجل شهادته لبنى أبى هاشم بالأمانة والورع والثقة والضبط ٥ فى (رسالة الضبعين) التى كتبها الى « معز الدولة ثمال بن صالح » يشكو اليه فيها تحريف رجلين لبيت من شعره فى (لزوم ما لا يلزم) ليتهماه بالالحاد . قال :

« وفى حلب حساها الله نسخ من هذا الكتاب – يعنى اللزوم – بخطوط قوم ثقات يعرفون ببنى أبى هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه . وان أحضرت – النسخ – ظهرت الحجة بما قلت فيه » .

* * *

واشتهر من تلاميذه:

على بن المحسن بن على التنوخى القاضى ، وهو من أقرانه ، وقد لقيه ببغداد ، وكان له صاحبا وصديقا طول مقامه بها . وفيه يقول أبو العلاء القصيدة التائية التي نقلنا بعض أبيات منها ، في حديث الرحلة الى بغداد .

وأبو زكريا الخطيب التبريزى ، من أعيان القرن الخامس . والامام أبو المكارم عبد الوارث بن محمد الأبهر .

والفقيه أبو تمام غالب بن عيسى الأنصاري الأندلسي .

والخليل عبد الجبار القزويني ، وأبو طاهر محمد بن أحمد الأنبارى ، وأبو الحسن على بن همام ، ونصر بن صدقة القابسي النحوى ، الذي رحل الى المعرة فلازم أبا العلاء وقرأ عليه وأخذ عنه .

وأبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الاصبهاني ٥ وكان من فضلاء العصر ، قصد الى معرة النعمان ولازمه مدة حياته يقرأ عليه الى أن مات . وله صنف أبو العلاء كتابه « ضوء السقط » شرحا لسقط الزند .

ولم يقبل قط أن يأخذ على العلم أجرا ، بل انه كان يود لو أن موارده المالية المحدودة ، احتملت عبء ضيافة تلاميذه . وما ستمرع — فى المرحلة الثانية من عمره — يشكو من ضيق ذات يده ، الا لقصوره عن أداء حق الضيافة ، فكان — فيما نقل القفطى والذهبى : « يتأوه من ذلك ويعتذر الى قاصديه » .

وحاول مع ذلك ، أن يقتر على نفسه فى القليل من رزقه ، ليوفر من دخله المحدود ما كان يعده زكاة مروءته ، ذكر ابن العديم فى (الانصاف) أن أبا العلاء «كان لا يقنع بالدفع الى من يقومون على خدمته ، بل كان يدفع من ايراده الضئيل شيئا لأولى الحاجة ممن يتردد اليه ». ثم نقل باسناد عن الخطيب التبريزى أنه قال:

« كان المعرى يجرى رزقا على جماعة ممن كان يقرأ عليه ويتردد لأجل الأدب اليه » .

كما نقل مما قرأه بخط أبى الفرج محمد بن أحمد بن الحسن له الكاتب الوزير ، فى وصف رحلته الى الحج من أذربيجان ، ومروره بالمعرة للقاء أبى العلاء :

« وله معاش یکفیه ویمونه ، وأولاد أخ یخدمونه ویقرأون بین یدیه ویدرسون علیه ویکتبون له ، وور اق برسمه مستأجر ؛ ثم ينفق على نفسه من دخل معاشه نفقة طفيفة ، وما يفضل عنه يفرقه على اللائذين به وفقراء القاصدين له من الغرباء » .

وقد أبت عليه مروءته ، أن يقبل من تلميذه الخطيب التبريزى — وكان فقيرا — نفقة اقامته التي طالت عنده . وفي الخبر أن الخطيب «كان قد أعطاه صرة فيها ذهب ليدفعها الى من يختار » كي ينفق منها على ما يحتاج اليه من طعام ، ويتوفير هو على القراءة والدرس . فأخذ أبو العلاء الصرة ، وهيأ لتلميذه مطالب العيش طول مقامه بمعرة النعمان ، وهو يظن أن ذلك من ذهبه الذي دفعه الى الشيخ . فلما حان وقت رحيله وودع شيخه » دفع اليه صرته بعينها لم تمس » ..

* * *

واتصل به من غير التلاميذ وطلاب العلم والأدب ه عدد من أعلام العصر . اما بالرحلة اليه ه واما بمراسلته . واشتهرت رسائله الى بعضهم ، مثل (رسالة الغفران) التي أملاها ردا على رسالة تلقاها من معاصره الأديب الحلبي ، على بن منصور المعروف بابن القارح . ورسائله الى داعى الدعاة أبى نصر هبة الله بن موسى ابن أبى عمران ، ردا على رسائل تلقاها منه ، يجادله فيها عن امتناعه عن أكل اللحوم وايذاء الحيوان .

واتصل به كذلك ، عدد من الأمراء ، يسألونه تشريفهم بتصنيف كتب برسمهم . وأجاب دون أن يأخذ على شيء منها أجرا : صنف كتاب « تضمين الآى » لأحدهم ، وهو يتضمن العظات والحث على تقوى الله تعالى ، مع الاتيان بآية من القرآن

الكريم فى ختام كل فصل من الكتاب . وصنف كتاب « تاج الحرة » فى عظات النساء بخاصة ، لاحدى الجليلات من النساء ه ويقول ابن العديم : « ويغلب عملى ظنى أنها طرود ، زوج ابن مرداس . ومقداره أربعمائة كراسه » .

وألف كتاب « سجع الحمائم » لبعض الرؤساء اجابة لطلبه ، وهو على لسان الحمامة فى العظة والحث على الزهد . ومقدار فلاثون كراسة .

وكتاب « الجلى" والجلى" » سأله فيه رجل من أكابر الحلبيين وأعيانهم . مقداره عشرون كراسة .

وللأمير عزيز الدولة شجاع بن فاتك — والى حلب من قبل المصريين فى أيام الحاكم وبعض أيام الظاهر — ألف ثلاثة كتب: الصاهل والشاحج ، على لسان فرس وبغل . والقائف ، وفيه أمثال على معنى كليلة ودمنة .

وألف لسند الدولة الكتامي ، والى حلب من قبل المصريين ؛ (الرسالة السندية) و (رسالة العرض) .

و (رسالة الاغريض) كتبها الى أبى القاسم الحسين بن على المغربي ، وكان قد سير اليه كتابه الذى اختصر فيه (اصلاح المنطق) لابن السكيت .

وعمل للأمير عزيز الدولة ثابت بن ثمال بن صالح ، كتاب (اللامع العزيزى) في تفسير شعر المتنبى . وبعث اليه أبو اليمن المسلم بن الحسن ٥ صاحب الديوان بحلب ، نسخة من شعر أبى عبادة الوليد البحترى ، فأعاده اليه بعد أن راجعه ونقده ، ودون ما فيه من غلط ، فى كتاب سماه (عبث الوليد).

وكتاب (شرف السيف) عمله لأمير الجيوش أنوشتكين والى دمشق وحلب .

وأنفذ اليه « مصطنع الدولة ؛ أبو غالب كليب بن على » ديوان الحماسة مع شرح أبى رياش لها ؛ وسأله أن يخرج فى حواشيها مالم يفسره أبو رياش ، فأجابه أبو العلاء ، بكتاب مفرد سماه (الرياشي المصطنعي) .

هذا الى جانب ما ألفه للأصدقاء ، وذوى الحاجة ، ممن سألوه أن يزودهم ببعض مؤلفات فى موضوعات يحتاجون اليها ، ومن ذلك :

- (سيف الخطبة) وفيه نماذج لخطب الجمع والعيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وعقد النكاح ، على حروف المعجم . سأله فيه أحد المشتغلين بالدين .
- و (ضوء السقط) وهو شرح لديوانه سقط الزند، وضعه لتلميذه أبى عبد الله محمد الأصبهاني .
- (والظل الطاهــرى) فى النحو ، عمله لأبى طاهر المسلم ابن على ، من أفاضل الحلبيين .
- و (المختصر الفتحى) و (عون الجمل) عملهما لولد كاتبه ، أبى الفتح محمد بن الشيخ أبى الحسن على .

و (شرح خطبة أدب الكاتب) عمله لأبى الرضى سالم ابن الحسن الحلبي ، وكان من الفضلاء الأدباء الشعراء .

ولم نذكر الحشد الكاثر من الزائرين 4 ومن الأصدقاء الذين تبودلت بينهم وبينه الرسائل الاخوانية أو اللغوية والأدبية .

* * *

لكنه مع كل هذا الاتصال بالناس ، لزم مسكنه لم يبرحه الى أن مات سنة ٤٤٩ هـ ، وقد حاول الحاكم بأمر الله الفاطمى أن يحمله الى القاهرة ، مع من جلب اليها من علماء العصر ، لما بلغه من واسع علمه . وفى خبر نقله السيوطى فى (بغية الوعاة) أن نصر بن صدقة القابسى النحوى توجه الى المعرة فالازم أبا العلاء وأخذ عنه ديوانه سقط الزند ، وكتب منه نسخة جيدة . فلما عاد الى مصر قدمه الى « الحاكم » فأعجبه نظمه وقرر أن يستدعيه من المعرة .

وذكر ابن العديم فى (الانصاف) أن «الحاكم» أمر وزيره «على بن جعفر بن فلاح» أن يكتب الى عزيز الدولة أبى شجاع فاتك ، والى حلب وأعمالها ، بحمل هذا العالم الى مصر ليبنى له بها دار علم يكون متقدما فيها ، على أن يتسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته . فلما تلقى عزيز الدولة كتاب الوزير نهض من فوره وسار الى معرة النعمان واجتمع بأبى العلاء وقرأ عليه الكتاب ، فاستمهله ريثما أملى الى الوزير الفلاحى رسالة مطولة — تجدها فى مجموع رسائله — يستعفيه بها من كل ما عرض ، وينفى ما اشتهر به من علم ، ويعتذر بعجزه وقصوره ما عرض ، وينفى ما اشتهر به من علم ، ويعتذر بعجزه وقصوره

عن عدم اجابة الطلب على ما به من شوق الى الحضرة ، ومجالسة من فى دار العلم بمصر من السادات الكبراء . وننقل هنا من رسالته : « . . ما اعتزلت حتى جددت وهزلت ، فوجدتنى لا أصلح لجد ولا هزل ، فعندها رضيت بالأزل .

« ما حمامة ذات طوق يضرب بها المثل فى الشوق ٥ كانت فى وكر مصون بين الشجر والغصون ، تألف من أبناء جنسها ريدا فيتراسلان تغريدا ، مسكنها نعمان الأراك ، تأمن به غوائل الأشراك ٥ وتمر فى بكرتها بالبيت الحرام لا تفرق لمكان صائد ولا رام ، فغرها القدر اذ لم ينفع الحذر ٥ فخرجت من الأرض المحرمة فأصبحت وهى جد مغرمة ، صادها وليد فى الحل ، ما حفظ لها من ال ٥ فأودعها سجنا للطير ومنعها من كل مير .. بأشوق الى المعيشة النضرة منى الى تلك الحضرة . ولكن صنع الزمان ما هو صانع ، واعترض دون الخير مانع .. المورد نمير أزرق ، ولكن المدنف بالشراب يشرق :

لما رأى لُبُكُ النسور تطايرت رفع القوادم كالفقير الأعــزل انهض لبد ، هيهات ! صدك الأبد .

« وان العامة عهدتنى فى صدر العمر أستصحب شيئا من أساطير الأولين فقالت: عالم، والناطق بذلك هو الظالم، ورأتنى مضطرا الى القناعة فقالت: زاهد ، وأنا فى طلب الدنيا جاهد. وزاد تقو ل القوم على حتى خشيت أن أكون أحد الجهال الذين ورد فيهم الحديث المأثور: « ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من صدور الناس، ولكن يقبض العلم بموت العلماء، حتى اذا

لم يبق عالم " اتخذ الناس رءوسا جهالا ، فسئلوا فأفتوا بغير علم ، فضلوا وأضلوا » .

« .. وكيف يتأدى العلم الى" وأنا رجل ضرير ، وكفى من شر سماعه ، ونشأت فى بلد لا عالم فيه .. ولم أكن صاحب ثروة ، فكيف الحدداء بغير بعير ، والانباض مع فقد التوتير ، فأن بلغ سيدى الشيخ أن سارى الليل قبض على سهيل ، وأن الأرض أنبت وشيا وحريرا ، والسحاب أمطر مداما وعبيرا ، فهو أعلم بردة على المبطلين

« لهفي على فوات هذه المنزلة! .. من لا يصلح لمجالسة النظراء فكيف ينتدب للقاء السادات الكبراء!

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادى

« هل آمل من الله ثوابا ، وانما أنا كقتلى بدر أسمع ولا أملك جوابا . ولمثل هــذه الرتبة سهر من أهل العلم الساهرون .. « يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما » .

« وعزيز الدولة يعين الكسير بالجبر ، فكيف يأمر باخراج ميت من قبر ! .. » .

* * *

لنا أن نقول اذن: ان عزلة أبى العلاء وان لم تسلم له على النحو الذى أراد ، الا أنه التزم بها من ناحيته ، فلم يبرح منزله حتى مات ، وكان الناس هم الذين اقتحموا عليه هذه العزلة ، فشغلوه وشغلوا به ..

علی کره منه ..

وكان أحيانا يضيق بزائريه ، وينكر أن يكون لديه مأرب لقاصد ، أو منتجع لرائد :

يزورنى القــوم ۵ هذا أرضه يمن

من البلاد وهـــــذا داره الطبس

قالوا سمعنا حديثا عنــك قلت لهم

لا يبعد الله الا معشرا لــُــِــــوا

يبغون مني مبنى لست أحسينه

فان صــــدقت عرتهم أوجه عبس ماذا تريدون ? لا مــــال تيسر لي

فيئستماح ولاعسلم فيقتبس

أنا الشقى بأنى لا أطيق لـــكم

معمونة وصروف الدهمر تحتبس

وطالمًا اشتهى الوحدة التامة ، ورأى فيها الراحة العظمى

المتاحة لمثله فى الدنيا ، والطهارة من دنس العصر ولؤم أهله:
هـذا زمان ليس فى أهـــله الالأن تهجــره أهــل حان رحيــل النفس عن عالم ما هو الا الغدر والجهـــل

فى الوحدة الراحة العظمى فأحنى بها

قلبا ۵ وفی الکون بین الناس اثقال

طهارة نفسي في التباعد عنكم

وقربكم يجنى همسومى وادناسى

حیّ ســوی الله ، لا جن ولا انس

سلكت طرق المعــالى ثم قلت لهم

سيروا ورائي ، فلما شارفوا خنسوا

بنو الوقت ان غرُّوك منهم بحُكُّمة

فما خلفها الا غـــرائز جهـــالُ

لذاك سجنت النفس حتى أرحتها

من الانس ما أخسلاه ربع باخلال

اذا ما حللت الجدب فردا بلا آذي

فسقيا له من روضة غير مطلال

*

وما فى الأرض من شرب كـــريم

يسر بورده الصـــادي العيوف

وما باختياره كان يلقى زو ّاره ..

ولا باختياره كذلك كانت عزلته عن الناس ، وانما حمله عليها عجزه عن احتمال نكر العصر وفساد المجتمع ، وانه ليقول مع ذلك ، في اجتماعية الانسان كلمات جرت مجرى الأمثال:

الناس للناس من بدو وحاضرة

بعض لبعض ، وان لم يشعروا خدم

ولو أنى حُبيت الخلد فرداً لل أحببت بالخلد انفرادا فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا

صتائم الدهثير

ووجدت نفس الحر تجعلكفته صـفرا ، وتلزمه بما لا يلزم (اللزوميات)

فماذا عن قراره الخاص بالتزهد والحرمان من كل متع الدنيا ولذاتها ?

كان أمرها فيما يبدو هينا عليه » حيث استطاع أن يبقى على الحرمان ما عاش ، فبقى الى آخر عمره لم يتزوج ، وأمضى نحو نصف قرن من الزمان « طعامه البقل » ولباسه خشن القطن ، وفراشه سحادته : من لباد فى الشتاء » وحصير البردى فى الصيف » .

أجمع على ذلك مؤرخوه بلا استثناء ، وشهدت به آثاره التي أملاها بعد عزلته .

وكان له ايراد يسير يأتيه من وقف له مقداره بضعة وعشرون دينارا فى السنة ، يدفعه نصفه أجرا لخادم ووراق و ويقيم أوده بالنصف الباقى . فاذا ضاق هذا القدر الضئيل عن الوفاء بضرورات العيش ، تخلى عما يطيق الاستغناء عنه منها ، وأبى أن يلتمس زيادة فى رزقه من أى سبيل .. أو كما قال فى احدى رسائله الى داعى الدعاة :

« ولست أريد فى رزقى زيادة ، ولا أوثر لسقمى عيادة » . وكما رفض وهو ببغداد ، قبول ما عرضه عليه البغداديون من أموالهم عرض الجد ، أبى بعد عزلته أن يقبل عطاء من أى مخلوق . وقد مر " بك فى حديث عزلته ، ما ذكره مؤرخوه من أن الحاكم العلوى بمصر ، أراد أن يصله اليها لما سمع من علمه ، على أن يسمح له بخراج معرة النعمان طول حياته ، فأبى واعتذر . ويذكرون أيضا فى تاريخه ، أن المستنصر بالله الفاطمى صاحب مصر — ٧٢٤ هـ — « بذل له ما ببيت المال فى معرة النعمان فلم يقبل منه شيئا » .

وأبى أن يرجع عما ألزم به نفسه من الامتناع عن أكل اللحم واللبن والبيض وايذاء الحيوان ، وأصر على الاكتفاء بما تنبت الأرض من بقل وفاكهة ، بالرغم من انكار مجتمع عصره لهذا المسلك ، واتخاذه مطعنا لتجريحه واتهامه .

وتشهد الرسائل التي تبودلت بينه وبين « داعي الدعاة : أبي نصر هبة الله بن موسى بن أبي عمران العلوى » على ما أجهد أبا العلاء من عنف الخصومة على موقفه ، وعنت المجادلة فيه ، وعلى ما تكلف من مشقة وعناء لكي يبرر مسلكه .

وكان أبو العلاء قد قال قصيدته اللزومية :

غدوت مريض العقل والدين فالقنى

لتسمع أنبـــاء الأمور الصحائح

فلا تأكلن ما أخسرج الماء ظالماً

ولا تبغ قوتا من غريض الذبائــح

بما وضعت ، فالظلم شر القبائح

ودع ضرب النحل الذي بكرت له

كواسب من أزهار نبت فوائــــح

ولا جمعته للنـــدى والمنـــائح

مسحت یدی من کل هـ ذا فلیتنی

أبهت لشأني قبل شيب المسائح

فكتب اليه داعى الدعاة ، أنه ذلك المريض ، وقد جاء يلتمس لديه البرء والشفاء .

وكان أول سؤاله: عن العلة فى تحريمه على نفسه أكل اللحم واللبن ، سؤال من يعرف « أن القوة الانسانية مستولية على الحيوان استيلاء الحيوان على النبات ، لرجحانها عليه بالنطق . فهى مسخرة له على أنواع من التسخير ولولا ذلك لكان موضوع الحيوان باطلا . فتجافى الشيخ — وفقه الله — عن الانتفاع بما هو موضوع له مخلوق لأجله ، ابطال لتركيب الخلقة . ثم امتناعه من أكل الحيوان ليس يخلو القصد به من أحد أمرين : اما أنه تأخذه رأفة بها فلا يرى تناولها بالمكروه ، وما ينبغى أن يكون أرأف بها من خالقها . فاذا ادعى أن تحليلها وتحريمها انما كان من بعض البشر ، يعنى به أصحاب الشرائع ، وأن الله لم يبح اراقة دم حيوان وأكله ، كان الدليل على بطلان قوله ، وقوع المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التي خلقها الله سبحانه المشاهدة لجنس السباع وجوارح الطير التي خلقها الله سبحانه

على صيغة لا تصلح الا لنتش اللحوم وفسخها وتمزيق الحيوانات وأكلها. وإذا كان هذا الشكل قائم العين في الفطرة ، كان جنس البشر وسيع العذر في أكل اللحوم ، وكان من أحل المهم ذلك محقا. والثاني: أنه يرى سفك دماء الحيوان خارجا عن أوضاع الحكمة ، وذلك اعتراض منه على خالقه الذي أوجده! ».

هكذا خرجت القضية من زهد زاهد ، وتأملات شاعر ، الى مجادلة فى نظام الكون وترتيب الكائنات وحكمة الخالق! وأجاب أبو العلاء:

«.. وقد علم الله أن سمعى ثقيل وبصرى عن الابصار نقيل . قد على قرانا ابن أربع لا أفرق بين البازل والربع . ثم توالت محنى فأشبه شخصى العود المنحنى .. وأما ما ذكره السيد الرئيس الأجل ، المؤيد في الدين ، فالعبد الضعيف العاجز يذكر له مما عاناه طرفا ، فأقول : ان الله جلت عظمته حكم على "بالازهاد ، فطفقت من العدم في جهاد . وأما قول العبد الضعيف العاجز : غدوت مريض العقل والدين فالقنى *

فانما خاطب به من هو فى غبرة الجهل لا من هو للرياسة علم وأصل . وقد علم أن الحيوان كله حساس يقع به الألم .. ولم يزل من ينسب الى الدين يرغب فى هجران اللحوم لأنها لم يوصل اليها الا بايلام الحيوان .. وقد تردد فى كلام العرب ما يلحق الوحشية من الوجد ، والناقة اذا فقدت الفصيل ، فقال قائلهم :

فما وجدت كوجدى أم سقب أضالته فرجعت الحنيا » وعرض لاختلاف العلماء فى الشر والخير » « وهذه عقدة قد اجتهد المتكلمون فى حلها فأعوزهم » . ثم قال :

« فلما بلغ العبد الضعيف العاجز اختلاف الأقوال ، وبلغ ثلاثين عاما ، سأل ربه انعاما . ورزقه صوم الدهر فلم يفطر فى السنة ولا الشهر الا العيدين . وصبر على توالى الجديدين . وظن اقتناعه بالنبات يثبت له جميل العافية ..

« ومما حثنى على ترك أكل الحيوان » أن الذى لى فى السنة نيف وعشرون دينارا ، فاذا أخذ خادمى بعض ما يجب بقى لى ما لا يعجب ، فاقتصرت على فول وبلسن » وما لا يعذب على الألسن .. ولست أريد فى رزقى زيادة ، ولا لسقمى عيادة » والسلام » .

وطالت بينهما المجادلة ، وأراد داعى الدعاة أن يبطل حجته فكتب اليه :

« وقد كاتبت مولاى تاج الأمراء — يعنى ثمال بن صالح — أن يتقدم بازالة العلة فيما هو بلغه مثله من ألذ الطعام » ومراعاته به على الادرار والدوام ليكشف عنه غاشية هذه الضرورة ، ويجرى فى أمر معيشته على أحسن ما يكون من الصورة » .

ورد" أبو العلاء :

« .. وأما ما ذكره من المكاتبة فى توسيع الرزق على .. فالعبد الضعيف العاجز ما له رغبة فى التوسع ومعاودة الأطعمة ، وتركها

صار له عادة وطبعا ، وانه ما أكل شيئا من حيوان ، خمسا وأربعين سينة :

والشيخ لا يترك عساداته حتى يوارى فى ثرى رمسه »

وقد كان أبو العلاء ، حين أحجه بهذه الخصومة ، شيخا في نحو الخامسة والثمانين من عمره !

ولم يقبل الداعى اعتذاره بالعادة والطبع ، بل ألح فى مجادلته ، وقد حاول أبو العلاء ، أن يرد القضية الى وضعها البسيط ، من حيث هى مبالغة فى الزهد والتعفف ، محتجا بالمأثور عن النبى صلى الله عليه وسلم ، والأئمة من الصالحين ، من القناعة بالقليل ، وإيثار أهل الحاجة بما يفضل منهم :

« وقد عدل سيدنا الرئيس الى الايماء بأن من ترك أكل اللحم ذميم . ولو أخذ بهذا المذهب » لوجب على الانسان ألا يصلى صلاة الا ما افترض عليه ، لأن ما زاد على ذلك أداه الى كلفة ، والله تبارك وتعالى لا يريد ذلك » ولوجب أن الذي له مال كثير ، اذا أخرج عن الذهب ربع العشر ، لا يحسن أن يزيد على ذلك : وقد حثّ الناس على النفقات في غير موضع من الكتاب الأشرف » .

واذا كان الداعى قد أفلح بتمارضه فى جر" أبى العلاء الى المناظرة ، وضيق عليه الخناق بجدله الماكر ، فقد أعياه أن يقنع طبيبه بالرجوع عن رأيه ومسلكه ، بل أصر عليه ما عاش ، وأعلن

عن هذا الاصرار بقوله فى رسالته الرابعة الى ابن أبى عمران ، انه « قد رضى أن يلقى الله جلت قدرته ، وهو لا يطالب الا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فان وصل الى هذه الرتبة فقد سعد » . . أجل ...

يلقى الله بهذا ، ولا يلقاه بما أوغل الناس فيه من شر واثم وظلم وبغى ، وما اقترفوا من كبائر وفواحش ، وان أصناف الحيوان — فيما قال : « لأولى بالرأفة ، وهى لم تشرب من الاثم بذنوب ، ولم تجن ما يكتب من الذنوب » .

* * *

ولقد جادله آخرون فى هذا المسلك ، فأمسك عن المجادلة يأسا من اقناعهم ، لكنه لم يتزحزح عن موقفه ، ولم يرجع عن قراره .

وفى الخبر أنه مرض فجاءوه بطبيب وصف له لحم فروج غذاء . وأتوه به فلمسه وقال :

« استضعفوك فوصفوك . هلا وصفوا شبل الأسد! » . وأبى أن يذوقه ..

أنا صـائم طول الحياة وانما

فطرى الحمام ، ويومذاك أيميد

النسترالمُذاع

وقال الفارسون : حليف زهــــد

وأخطأت الظنون بما فرسسنه

ور منت صعاب آمالي فكانت

خيــولا في مراتعهــا شمسنه

ولم أعـــرض عن اللذات الا

لأن خيــــارها عنى خُنُسَــنه (اللزوميات)

لمدى يقرب من نصف قرن ، أخذ أبو العلاء نفسه بأقسى ضروب الزهد ، وراضها على احتمال ما فرض عليها من حرمان صارم . فهل كان ذلك عليه هينا ?

كلا! بل انه كان يخوض مع بشريته معركة بالغة العنف والقسوة ، والذى لا ريب فيه عندنا أنه بذل فى هذه المعركة ما يجاوز طاقة البشر ، لكنه ظل ، الى آخر العمر ، عاجزا عن أن يقهر فى نفسه حب الدنيا ، أو يرتاح بالسلو عنها!

وقد يبدو هذا القول غريبا ، مع ما شاع فينا وذاع ، من أن الرجل انتصر على الدنيا منذ قرر الانسحاب منها ، ووطئها بقدميه بعد أن انصرفت تفسه عنها .

ولسنا بحيث ننكر أن أبا العلاء لم يكف عن ذم الدنيا ولعنتها « ولكنه كذلك لم يكف عن الشكوى مما رسخ فى نفسه من حبها ، والأنين مما ظل يكابد من أشواق بشريته المكبوتة ، وحاجاته الغريزية المقهورة !

وهو حين انسحب منها اثر عودته من بغداد ، لم يكن يبغى آكثر من الظفر براحة اليأس منها ، بعد أن عز تت عليه راحة الأمل فسما !

ولم يطأها بقدميه كما زعموا .

وانما اتجهت محاولته الى قهر ما فى فطرته من شغف بالدنيا ، بهذه الرياضة القاسية الصارمة .

ولسنا نقول فى هذا برأى لنا ، وانما الكلمة فيه لأبى العلاء ، وقد قالها بصدق مثير وصراحة مؤثرة ، فيما ترك لنا من آثاره فى الشطر الثانى من حياته ، وظل يقولها الى أن استراح بالموت من عذاب المكابدة .

وهنا نطيل الوقوف ، لنصغى اليه وحده . لعل صوته ينفذ الى أعماق وجداننا فينسخ بصدقه ما رسخ فى هذه الأعماق من أقاويل عنه ، ويهدينا الى عالمه النفسى ، حيث نراه على حقيقته ، مجردا من الظلال التى مسخته !

ولنبدأ بالفصول والغايات ، التى بدأ يمليها اثر انسحابه من بغداد الى محبسه بالمعرة ، وفيها جؤار من حرقة الظمأ ، ولهفة على راحة اليأس :

« انما أنا رجل بُلبِي بالصدى ، لا يجد أبدا موردا ، فهو

ظمآن أبدا! ان ورد غروفا — البئر يغرف ماؤها في يسر — وجده مضفوفا 4 وان صادف نزوعا ؛ أعوزته الآلة والمعين .. » .

« أيتها الدنيا البالية ؛ ما أحسن ما حلتك الحالية ! والنفس عنك غير سالية .. » .

« بى طب — داء — فأين أستطب ، وأنا تحت حب الدنيا محب — رازح — أثقلني فأنا مكب » .

« زويت عنى الدنيا فأسفت ، وأشفقت لذلك وخفت ، وأحببت لها وشنفت . ولو أنصفت لعبِفت ما أستوبله — أجده وبيلا — فما نئفت » .

« رضيت بالحضض على مضض ٠٠ » ٠

« لا أكتمك - مولاى - ما أنت به عليم ، ان أسفى على الدنيا طويل ..

« أحب الدنيا كأنها تحبني ، والغريزة عن الرشد تذبني .. » .

« أحب الدنيا وآلتها ليست في ! وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فالام التشوف والضلال ? » .

وقال في اللزوميات:

وصدقت هذا العيش في حبى له

واغترنی بخداعه وکدذابه عذب یعذبنی البقاء وللردی

يــوم يخلص من فنــون عـــذابه

نحن البرية أمسى كلنا دنفسا

بحب دنیاه حبا فوق ما یجب

\$

وكلكم يبدى لدنياه بغضة

على أنه يخفى بها كمد الصب

×

لو أن عشقك للدنيا له شبح

أبديته ، لمسلأت السمل والجبلا

*

شقينا بدنيانا على طول ودها

فدونك مارســها حبــاتك واشقها

ولا تبدين" الزهـــد فيها فكلنا

شهيد بأن القلب يضمر عشقها

*

أيها الدنيا لحاك الله من ربــــة دل ما تسلى خلدى عنـــ ك وان ظن التســـلي

*

أشربت حبتك لا ينفيه عن جسدى

ســوى ثرى لدماء الانس شراب

*

صحبت عيشا أعانيـــه ويغلبني

مثل الوليد يقود المصعب السدما

قد ملك زمانا شراه لهـــب

اذا دنا لخبو" ، عاد فاحتدما

*

تنازعني الى الشميهوات نفسي

فلا أنــا منجــح أبدا ولا هي

*

أقمت برغمی ، وما طائــــری براض اذا ألفتـــه الوكــون

ولى أمـــل كأتم القنـــــا

وحال" كأقصر سمهم يكون

*

ولى أمل قد شبت وهو مضاجعي

وساودني قبل السواد وما هما

*

اله الأقام ورب الغمام

لنيا الفقير دونك والملك لك

أسفت وضاق على" الفاك

*

لأمرواه الشبيبة كيف غضنه

, وروضات الصب اكاليس اضنه

وآمال النفوس معسسللات ولكن الحبوادث ننتقض فلا الأيسام تفسيرغ من أذاة ولا المهجات من عيش غرض أما وفؤاد بالغـــرام قريـــــح ودمع بأنواع الهمم لقد غر"ت الدنيـــا بينها بمذقها وان سمحوا من ودُّها بص أليــلى ۵ وكل" اصبح ابن ملو"ح ولبنی 4 وما فینا ســوی ابن ذریح وليس لنا في مدة العيش راحة فكيف بموت من أذاك مريح وتعقد سلوان الفتي عنبك نفسه بأذيال برق أو ذوائب ريــــــ بُلِي َ الحبــل والغزالة فوق الأر ض لم يبــــل خيطها المغــــزول وأنا العَوَيْد ، قلبه أضــــمر الشو ق ولكن ظهــــــ

ودنیـــاك التی عـُشـِقت وأشقت كذاك العشق ، معروفا ، شـــقاء سألناها البقاء على أذاها

فقالت: عنكم حظر البقاء

بعاد واقع فمتى التـــــدانى وبين شــاســـع فمتى اللقـــاء

<u>.</u>

أبي القسلب إلا أم دفو كما أبي

سوى أم عمرو ، موجع القلب هائم

هى المنتهى والمشتهى ومع السما

أماني منها دونهن العظــــائم

*

أطارق هم ضاف ، هل أنت عــاذر

متى لم تجد لى عنـــد مرتحل طرقا

فلا عيش ان لم أشرب الكدر الطرقا

وحبى للدنيا كعبك خالصا

وفی عنقینا من ہــوی جعلتــ ر بقا

*

البئت حسول الماء من ظمساً

ان غزیی مــــا لـــه مرس

مهجتي ضــــــد يحـــــاربني

أنا منى ، كيف أحسسترس!

*

نفسى بها ونفوس القـــوم ملهجة

ونحن نخبر أنا لا نبـــــاليها

أمرتنى بسلوا عن خوادعهـــا

فانظر ، هل انت مع السالين ساليها

ولا ترى الدهر الا من يهيم بهــــا

قد يقال انه كابد هذا الشغف بالدنيا ، فى مستهل عهده بالعزلة ، ثم برىء منه على تطاول الزمن . ولكن من أبيات اللزوم ما يشهد بأنه ظل يلوب حول الماء من ظمأ ، ويشكو وطأة الحرمان ، الى عهد المشيب الذى تأخر . وهو وان أحس الشيخوخة نفسيا فى عز رجولته ، قبل انسحابه من بغداد ، الا أن شيبه تأخر طويلا عن أوانه المعهود ، بدليل قوله فى اللزوم :

أيا مفرقي هلا بيضضت على المدي

فما سرنى أن بت أســـود حالكا

قبيح بفود الشميخ تشمبيه لونه

بفود الفتى ، والله يعلم ذلكا

وقوله:

تأخر الشيب منى مشـــل مقدمه

على سواي ، ووقت الشيب قد حضرا

وما ينفع الغربيب والضعف واقع

ولدينا مع ذلك ، نصوص من اللزوميات ، يتحسر فيها على الحرمان ، بعد أن جاوز الخمسين من عمره :

أسير عن الدنيـــا وما أنا ذاكر

لها بسملام ان أحداثهما حمس

ولا الركن ، تقبيل" لدى" ولا لمس

ولم أرث النصف الفتاة ولم ترث

بي الربع ، بل ربع تطاول أو خمس

العمرى لقد جاوزت خسين حجة

وحسبي عشر في الشيدائد أو خمس

وأجهـر حينا ، ثم أهس تــــارة

وسيان عند الواحد الجهر والهس

وفي الخمسين شكا ظمأه وجدب حياته :

علقت بحبل العيش خسيين حجة

فقد رث حتى كاد ينصرم الحبل

وهل ينفع الطل الذي هــو نازل

بذات رمال عندما جحــد الوبل

وقال في شيخوخته ، وهو يدنو من النهاية :

تباركت يا رب العلا أنت صفتها

فليتك في أرزائها لم تبارك

أعانقها عنب د الوداع تشبثا

وكيف وداع بين قال وفـــارك

ولدينا أيضا ٤٠ أثر لأبى العلاء من مرحلة الشيخوخة ٤ أعنى (رسالة الغفران) التى أملاها حوالى سنة ٤٢٤ هـ وهو فى الستين من عمره ، بعد أن أمضى نحو ربع قرن فى مجاهدته . والرسالة معبرة عن أمانيه الموءودة ، مشحونة بأصداء أشواقه المكبوتة ، وصليل القيود التى كبلت نفسه بالحرمان الباهظ ، وقد أطلق لها العنان فى رؤيا عجيبة من رؤى يقظته وهذيان أمانيه ، فصورت لنا عالمه الآخر كما تمثله وكما اقترحه عليه حرمانه .

فالمقيد الذى لم يغادر محبسه منذ عاد من بغداد الى أن مات ، والذى ألجم عواطفه الهادرة وكبت انفعالاته الجياشة ، جاءت جنته حافلة بالحركة بريئة من الهدوء والسكون .

فيها رحلات صيد ، وزيارة ونزهة ، وقد تعنف الحركة فتصير عراكا ومنافرة وعربدة ، ويعلو الصوت فيصير صياحا وجعجعة . على أن هذه الحركة الحسية لا تقاس بالحركة النفسية العنيفة التى تموج بها جنة الغفران وتضطرب بها نفوس الموعودين بها ، فهم لا يبرءون من تعجب وحنين وتشوف وانتظار ، ومن خوف وحذر واشفاق وخيبة ، ومن اغراء وعتاب ، ومخاصمة ولمز وتعبير وتنابز بالألقاب . ويبلغ الانفعال ببعضهم أقصاه فيخرجهم عن طورهم ، وتراهم يتضاربون ويتلاحون ويتشاتمون ويشتمون ..

وصائم الدهر الذى حرم على نفسه لذات الدنيا ، ملأ جنته بالخمر والنساء ، وتفنن فى حشد صنوف من اللذائذ الحسية ، والشهوات المصورة : فأطباق اللحوم تقدم فى وليمة بالجنة على

ما يشتهى المدعوون اليها من الأدباء ، وأصناف الشراب تأتيهم كما يقترحون ، والحور العين يتشكلن على الصورة التى ترضيهم أو تخطر فى بالهم : يلتقى « ابن القارح » باثنتين من أجمل نساء الجنة ، ثم يزهده فيهما أنهما كانتا من نساء الدنيا! ويشتهى أن ينعم بالحور العين ممن قال فيهن الله تعالى : « حور مقصورات فى الخيام . لم يطمئهن انس قبلهم ولا جان » فيمضى به الملكك الى شجر الحور ، فيكسر ثمرة فتخرج منها حورية باهرة الحسن ، فيسجد اعظاما لله القدير ، ويخطر له وهو ساجد أن هذه الحورية ، على حسنها ، ضاوية نحيلة ، فيرفع رأسه وقد صار من ورائها ردف ضخم يهوله ، فيسأل الله تعالى أن يقصر عودها على قدر معين ، فيقال له : « أنت مخير في تكوين هذه الجارية كما تشاء » .

ومشاهد اللذة فى جنة المحروم ، تعرض مشخصة ممثلة : يسأل ابن القارح حوريته أن تتبعه بين كثبان العنبر وأنقاء المسك ، فيتخلل بها هضاب الفردوس ورمال الجنان ، فتقول : أيها العبد المرحوم ، أظنك تحتذى بى فعال الكندى ، امرىء القيس ، فى قوله :

فقمت بهيا أمشى تجير وراءنا

على اثرنا أذيال مرط مرحكل (الأبيات)

« ويعرض له حديث امرىء القيس فى دارة جلجل ، فينشىء الله جلت عظمته حورا عينا يتماقلن فى نهر من أنهار الجنة ٥ وفيهن

من تفضلهن كصاحبة امرىء القيس . ويعقر لهن الراحلة ، فيأكل ويأكلن من بضيعها ما ليس تقع الصفة عليه من امتاع ولذاذة . » ويلتقى ابن القارح وعدى بن زيد ، وقد خرجا فى رحلة صيد ، بأبى ذؤيب الهذلى ، وبين يديه ناقة عاملة مطفل ، يحتلب لبنها فى اناء من ذهب فيسألان متعجبين : « أتحتلب مع أنهار من لبن ؟ كان ذلك من الغبن » فيقول : « لا بأس ، انما خطر لى ذلك مثلما خطر لكما القنص ، وانى ذكرت قولى فى الدهر الأول :

وان حديثا منك 6 لو تعلمينه

جنى النحل فى ألبان عوذ مطافل

مطافيل أبكار حديث نتاجها

يشاب بماء مثل ماء المفاصل

فقيض الله بقدرته لى هذه الناقة عائذا مطفلا ، وكان بالنعم متكفلا ، فقمت أحتل على العادة » وأريد أن أشوب ذلك بضرب نحل .. فاذا امتلأ اناؤه من الرسل — اللبن — كون البارى جلت عظمته خلية من الجوهر ، رتع ثولها — نحلها — في الزهر » فاجتنى أبو ذؤيب ، ومزج حليبه بلا ريب ، فيقول : ألا تشربان ? فيجرعان من ذلك المحلب جرعا ، لو فرقت على أهل سقر لفازوا بالخلد شرعا » .

ويشرب ابن القارح من خمر الجنة التى وعــد بها المتقون « لا يصدعون عنها ولا ينزفون » فيذكر ما كان يلحق شــارب الخمر فى الدنيا من نشوة وفتور ، « فيختار أن يعرض له ذلك من غير أن ينزف له لب .. فاذا هو يخال فى العظام الناعمة دبيب نمل ، أسرى فى المقمرة على رمل ، فيترنم بقول اياس بن الأرت : أعاذل لو شربت الخمــــر حتى

يظل لكل أنسسلة ديسب

لما أنفقت من مالي مصيب

والموعودون بالجنة ، كما تمثلها أبو العلاء ، لا يحتاج أحدهم الى أن يعبر عما يشتهى فيكون له ما اشتهى وأراد ، بل يكفى أن تخطر له الخاطرة أو يهجس فيه الشوق ، ليجد ما يشتهى محققا « فعز الهنا القديم الذى لا يعجزه تصوير الأمانى ، وتكوين الهواجس من الظنون ! » .

وأبو العلاء الضرير ، الذي سشع في صباه يحمد الله على العمى كما يحمده غيره على البصر ، والذي تصورناه في شيخوخته قد ألف محنته واعتادها ، وتكلف الصبر عليها والرضى بها ، هو الذي يتمثل جنته ، وليس فيها من امتحن بعاهة في الدنيا الا رفعت عنه . بل انه لا يكتفى بأن يرتد الأعمى بصيرا ، والأعشى أحور ، والهرم شابا ، والسوداء بيضاء ، والبخراء طيبة النكهة ، وانما يلتمس تعويض كل منهم ، تعويضا لا يقترح مثله سوى المبتلى المحروم: فأحد أهل الجنة بصرا ، هم الذين حرموا نعمة الابصار في الدنيا . وأجملهم عيونا ، عثوران قيس ، وأطيب نسائها نشرا وأذكاهن رائحة فم ، امرأة كانت تدعى في الدنيا

« حمدونة الحلبية » وقد طلقها زوجها بائع السقط » لأنه كره رائحة فمها . وأنصعهن بياضا ، جارية كانت تدعى « توفيق السوداء » وتخدم فى دار العلم ببغداد ! والأعشى يبدو فى جنة أبى العلاء « وقد صار عشاه حورا معروفا وانحناء ظهره قواما موصوفا » .

وتلك هي جنة الضرير المحروم الحبيس ..

فاذا لم تكف فى الكشف لنا عن عالمه النفسى الذى غيبه عنا رواج أقواله فى مقت الدنيا ولعنتها ، فلنضف اليها أن أبا العلاء لم ينفض همومه وأشواقه وينفس عن كبته وحرمانه ، بهذا الأسلوب الخيالى فحسب ، بل جهر كذلك بكل ما كان يئوده من ذلك ، وأذاع سره المطوى ، دون احتيال عليه بابن القارح الذى متعه بفردوسه المتخيل ، ودون مداراة بأسلوب الرمز وشطحات الأوهام وهواجس الرقى .

تحسر على امتناع الدنيا عليه ، وحرمانه من البنين وهم زينة الحياة » وان حاول التسلى بأنه الما رفض الولد ، ليجنبه محنة الوجود ، وليجنب نفسه الفجيعة في الولد بعقوق أو شكل :

اذا لم یکن خسلفی کبیر یضیعه

حبِمامی ، ولا طفل ، ففیم حیاتی ?

وما العيش الا عــلة برؤها الردى

فخلى سبيلي أنصرف لطياتي

ألا تفكرت قبـــل النسل فى زمن به حللت ، فتـــدرى أين تلقيه ?

Ж

لو ان بنی افضل أهل عصری لا آثرت أن أحظی بنسلل فكيف وقد علمت بأن مشلل خسيس لا يجيء بغير فسللل

*

ومن ر زرِق البنين فغــــــير نـــــاء

بذلك عن نوائب مسيقمات

فمن تُكُل يهاب ومن عقـــــوق وأرزاء يجئن مصــــــم

وان تُعنطُ الانساث فأي بؤس

تبين في وجـــوه مقسمات

ودفن والحوادث فاجعــــات

لاحداهن احسدى المكرمات

÷

لقد سيعد الذي أضحى عقيما

فاما أن يربيــــه عــــــدوا

واما أن يصــادفه حمـام

فيبقى حـــزنه أبدا مقيما

وصاح بالدنيا ، من أعماق وجدانه الجريح المحترق بنار الظلام :

وأصبحت في الدنيا غبينا مرزءا

فأعفيت نسلى من أذاة ومن غبن

فان تحكمي بالجـــور في وفي أبي

فلن تحكميه فى بناتى ولا فى ابنى وأوقدت ِ لى نار الظلام فلم أجد

سناك بطرفى ، بل سنانك فى ضبنى

وأذاع سره ٥ بصراحة مثيرة ، مقرا بأنه ما زهد فى النساء عن طيب خاطر ، ومتحسرا على ما فاته منهن :

واذا الفتي كره الغـــواني واتقي

مرضا يعـــود ، وضره ما يطعم

فقد انطوت عنه الحيـــاة وكاذب

من قال عنه : يبيت وهو منعم !

¥.

أواني مسم فألقسي أواني

وقد مر فى الشرخ والعنفـــوان

زواني خـــوف المقـــام الذميــ

وعندى سر بذى الحديد ث كننت عنه فى العالمين الغوانى اذا رمدلة لم تجىء بالنبدات فقد جهلت أن سقتنها السوانى ا

انی آواری خلتی فأریهـــــم ریا 4 وفی سر الفــــؤاد أوار

لكنه يترقب الامكانا

أريد ليان العيش فى دار شـــقوة وتأبى الليالي غير بخل وليـــان

ويعجبنى شـــــيئان : خفض وصحة

ولكن ريب الدهر غير من شانى وما جبل الريان عندى بطائل

ولا أنا من خـُــود الحسان بريّان

أسمسير عن الدنيمسا وما أنا ذاكر لها بسلام ان أحداثهما حسس ضرورة ما حالين : ما لكعابهمسما

ولا الركن ، تقبيل" لدى ً ولا لمس

خمور الريق لسن بكل حـــال عـــلى طلابهن محــرمات ولكن الأوائس باعثــات ركابك في مهــالك مقتمـات

*

أريد الاناخـــة فى منـــزل وقد حثديت لســواه جِمالى فمن مخبرى: أغريق البحــا

ر آلقی الردی أم دفین الوصال هویت انفیسرادی کیما یخف هویت انفــــرادی کیما یخف

عمن أعاشر ثقـــل احتمـــالی أما لی فیما أرى راحـــــة

مدى الدهر من هذيان الأمالي

ألم ترنی حمیت بنات صدری فما زوجتهن وقد عنسنه وقال الفارسنون: حلف زهد

وأخطأت الظنــون بما فرسـنه ورشت صـعاب آمـالي فكانت

لأن خيــارها عنى خنســنه!

واذكر ما مر" بك من قوله في الفصول والغايات:

« أحب الدنيا وآلتها ليست في ، وقد يئست من بلوغها واليأس مريح ، فالام التشوف والضلال ? » .

« انما أنا رجل بثلى بالصدى ، لا يجد أبدا موردا .. فهو ظمآن أبدا » .

فاذا سألت: ففيم كانت اذن أقواله فى مقت الدنيا وتفننه فى وصف شرها ولؤمها ، قلنا ان الرجل تمنى — وقد أعوزته آلتها — لو استراح بالصد عنها وسكن الى يأسه من نيلها ، فكان اسرافه فى ذمها نوعا من الالحاح فى المجاهدة وحمل النفس على الزهد فيها ، وأعياه مع ذلك أن يقهر فى فطرته ما رسخ فيها من تعلق بالدئيا وشغف بها واشتهاء للذاتها ، فكان هذا الذى سمعت من لهاث الظما ، وحسيس النار المشبوبة فى أعماقه ، والأنين من مرض لا يبرأ وحب لا رجاء فيه ولا راحة منه:

أليلي وكل اصبح ابن ملوح

ولبنی وما فینا ســوی ابن ذکریح

ولم يطرحك المسرء عنه لعبرة

يراها بمرفوت العظـــام طريح

وليس لنا في مدة العيش راحة

فكيف بموت من أذاكِ مريــــح

وتعقد سلوان الفتى عنــك نفسـُه

وما زال فى بلواكرٍ مـــذ يوم وضعه

عليك ، الى أن عـــاد رهن ضريح

طلبت شفاء منك واهتجت سائلا

بذاك أبا سلمان وابن بريــــح

ومن هنا كان عذابه وكانت مجاهدته ..

لم يجد ، مدى الدهر ، راحة من هذيان أمانيه ..

ولا ظفر باليأس من دنيا يحبها وآلتها ليست فيه !

وبلغت به المكابدة أقسى مداها ، ففكر فى الخلاص منها بالموت ، وهم وهم وهم الستين من عمره ، بأن يقتل نفسه ليستريح ، لولا أنه أشفق من التبعة ، وخاف غوائل السبيل بعد الموت ، فذلك قوله فى (رسالة الغفران):

« قد كدت ألحق برهط العدم ، من غير الأسف ولا الندم ، ولكنما أخشى قدومي على الجبار .. » .

ولم تكن خاطرة عابرة ، بل فكرة ألحت على وجدانه طويلا ، ونطقت بها آثار له أخريات ، فقال فى اللزوميات :

لو لم تكن طرق هذا الموت موحشة

مخشية لاعتراها النساس أفواجا

وكان كل من ألقت الدنيا عليه أذى

يؤمهـــا تاركا للعيش أمواجــــا

وقال فى (الفصول والغايات) محددا طريقته للخلاص من محنة الحياة لو استطاع:

« لو أمنت التبعة ، لجاز أن أمسك عن الطعام والشراب حتى أخلص من ضنك الحياة ، ولكني أرهب غوائل السبيل .. » .

وكم تمنى لو أن أحدا باعه حياته بميته سهلة ، فيتخلى له عنها غير ناده :

من بعنی بحساتی میتة سرحا

بايعتنه ، وأهـان الله من ندما

الكن أحدا لم يملك أن يعقد معه هذه الصفقة ، كما لم يملك هو ننفسه أن يريحها بالموت ، فلم يبق له الا أن يلوذ بالله ضارعا ، أن يميل بخلاصه من الأولى وانه تعالى لمرجو أن يلطف به فى الأخرى ، بعد ما ابتلاه به فى دنياه :

« والطف مولاى بضعيفك اذا اقترى ، ونزل فى بطن الأرض من الفرى . ضيفك ، ولكل ضيف قرى ! ما أجدرك بالرأفة وما أحرى » .

« حمدا لك الهى! لا أعلم وقت اسكانك لى فى دار البلاء ، وقد عشت فيها ما شئت وأعيش فيها ما تشاء ، وأنا شاك اليك أثقال الزمن . فاذا قضيت عنها الرحلة فأعنى على تلك الغصص والغمرات ، فانى منها فرق ، وبى من الحياة ملل! » .

وما كان أشد تعبه من الحياة ، وتوقه الى الراحة من عذابه بها:

دعا لى بالحياة أخسو وداد

رویدك انما تدعــــو علیـــا

وما كان البقـــاء لي اختيــارا

لو أن الأمــر مردود اليــــا

*

ان يرحل النساس ولم أرتصل

فعن قضــــاء لم يُـفــــوض الى ً

خُـُلـُنفت من بعـــد رجال مضـــــوا

*

اذا غدوت ببطن الأرض مضطحعا

فثكم أفقد أوصابي وأمراضي

\$

اذا طُنفت في الثرى أعـــين

فقد أمنت من عمى أو رمسد وما أقسى أن يكون الموت أملا للشاعر الذى عمق احساسه بمحنة الموت ، ورأى فيه مأساة الانسان الكبرى ، وجاءت مراثيه فى أهله وأصحابه ، مرثية للانسانية المقودة برغمها الى البلى والعفن ، والدود والتراب ، لا ينجيها من هذا المصير المحتوم عاصم ، ولا تدفعه عنها حيلة طبيب ، أو رقية راق ، أو دموع أهل وأحباب!

وانه مع ذلك ليقول في مرثيته لأبيه:

وجدنا أذى الدنيا لذيذا كأنما

جنى النحل أصناف الشقاء الذي نجني

فما رغبت في الموت كند ر" مسير مها

الى الورد خمس 6 ثم يشربن من أجن

ويلقين شرا من مخالبه الحنجن

ولا قلقات الليل باتت كأنها

من الأينوالادلاج بعض ُ القنا اللدن

وخوف الردى آوى الىالكهف أهلكه

وكلتف نوحا وابنه عمسل السفن

وما استعذبته روح موسى وآدم

وقد وعيدا من بعده جنتي عدن

قانها وهو في الثلاثين من عمره ، وظل الى آخر العمر يجاهد حبه للدنيا ، ويئن من عجزه عن السلو عنها :

مهجتی ضـــد یحاربنی أنا منی ۵ کیف أحترس! ؟

الأدبيث ليحرّ

آعاذل قد ظلمتنا الملــــــ وك و نحن على ضعفنا أظلم (اللزوميات)

لن نستطيع أن نقدر أبا العلاء حق قدره ، مالم نتحرر من فكرة انتصاره على الدنيا وزهده النفسى فيها ، بمجرد أن أعلن انسحابه منها ، اذ لو صح القول بأنه « وطئها بقدميه فانقادت له » كما يقول الأستاذ عبد العزيز الميمنى ، و « ملا قلبه عن لذاتها بالعزاء النافع والصبر الجميل » كما يقول أستاذنا الدكتور طه حسين ، أو صح الزعم بأن الزهد كان طبيعة فيه ، لما كان فى صلوكه ما يغرى بالوقوف عنده أو يحمل على شىء من التقدير ، اذ يكون الحرمان هينا عليه لا يحمله أدنى مشقة ، ما دام يستجيب لما فى طبعه من زهد فيما حترم منه ، وعزوف عما امتنع عنه .

وانما كان سلوكه موضع تقدير ، لأن الرجل استطاع مع حبه للدنيا وعجزه عن السلو عنها لا أن يصبر على ذلك الحرمان الطويل الصارم ، فقد م لنا مثلا فذا لبسالة المجاهدة ، وكشف عما تطيقه البشرية من بطولة الاحتمال .

واذا لم يكن قد أفلح في قهر حب الدنيا في نفسه ، فانه قد

استطاع أن يمضى فى مجاهدته لها بارادة عجيبة ، وصمد للتجربة حتى آخر العمر . على قسوة ما كابد من أشسواق بشريته ، وما احتمل من جدل خصومه ومناظريه ، وانكار من نقموا عليه مخالفة الجماعة والخروج على سنتها وأعرافها .

وفى الفصل الذى مضى عن مناخ العصر ، ما يعطينا ملامح البيئة العامة التى عاش فيها أبو العلاء وما وصلت اليه من شر ونكر . وقد اعتزلها ولكنها لم تعتزله ، وانسحب منها لكنها شغلته وشغلت به ، ومن ثم لم يكن فى طاقته أن يجمد احساسه بشرور العصر ويعطل تفكيره فى فساد المجتمع ، وهو قد عاد مع العزلة مرهف الحس يقظ الوجدان طليق التأمل نافذ البصيرة .

ولا كان بمستطيع أن يلجم لسانه وقد تحرر من قيود الرغبة والرهبة ، وهو ما باع الدنيا على حبه الفطرى لها ، الا لكى يشترى كرامة نفسه وحرية رأيه وصدق كلمته ، فيجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة ، ويصدع بالحق الذى يخونه غيره نفاقا أو رياء ..

وماذا يستطيعون أن ينالوا منه ?

هل يحددون اقامته ، أو يمسكون عنه الرزق ، أو يقطعون عنه صلة تأتيه من ذى جاه ? أو يؤذونه فى عرضه وبنيه ?

لقد سد عليهم كل طريق ..

حدد لنفسه مكانا لاقامته لا يبرحه ، وقنع من الرزق بما دون الكفاف لا يتلمس فيه زيادة ، وليست له زوجــة تثقله بعب، أو مطلب ، ولا ولد يحمل همه ويجبن بسببه .

وانه لنقى العرض طاهر السلوك نظيف السيرة « عف اليد والضمير .

فماذا بقى له عندهم ، وقد انسحب من السباق وتخلى لهم عن الدنيا وما فيها ?

باعها أشد ما يكون شغفا بها ، واشترى حريته وكرامته ، فى عصر أذل الحرص فيه أعناق الرجال .

ووجد رسالته فى انتظاره منذ انسحب من بغداد ، احتجاجا عمليا على فساد البيئة وضلال المقاييس واختلال الموازين .. فهو وحده ، ولا أحد سواه ، من يجرؤ على أن يصدع جبروت الحكام وطغيان الولاة بمثل قوله :

مل المقسام فكم أعاشر أمة

وعــدكوا مصالحها وهم أجراؤها

لقد ساس أهل الأرض قوم تفتقت

أمـــور فما ألفت لهم يد راتق

يقيم عن الطريق ذوى النجــــوم

فكم قطعوا السبيل عـــلى ضعيف ولم يعفوا النساء من الهجــــــوم

هم ناس ولو رجمـــوا استحقوا بأنهم شـــياطين الرجـ اذا افتكر اللب رأى أميورا

ترد الضاحكات الى الوج

يكفيك حزنا ذهاب الصالحين معا

ونحن بعدهم في الأرض قطــان ان العسراق وان الشام منذ زمن

صفر ان ما بهما للملك سيلطان ساس الأتام شياطين مسلطة

فى كل مصرر من الوالين شيطان

من ليس يحفل خمص الناس كلهم

ان بات يشرب خمرا وهو مبطان

تشابه النجر: فالرومي منطفه

كمنطق العرب 4 والطائي مرطان

متى يقبوم امام ستقد لنا

فتعرف العدل أجسال وغطان

صلتوا بحيث أردتم فالبلد أذى

كأنما كلها للابل أعطــــان

كل الديار ذميم لا مقــــام به

وان حللت ديار الوبل والــــرهم

ان الحجاز عن الخيرات محتجـز وما تهامــة الا معــــدن التهــم والشام شؤم وليس اليـُمن في يـَمـَن

ويثربُ الآن تثريب عـــلى الفِّـهم

*

يا رب أخرجني الى دار الرضي عجالاً فهذا عـــالم منكوس،

ظلوا كدائــــرة تحول بعضها

من بعضـها ۵ فجسعها معــكوس

وأرى ملوكا لا تحـــوط رعيــة

فعــــلام تؤخـــذ جـــزية'' ومكوس

*

يسوسون الأمسور بغير عقسل

فينفذ أمرهم ويقال : ساســـه

فأف من الحيالة وأف منى

桊

ظلم مستضعف وأخمذ مكوس

وحياة في عالم منكوس

*

فكم جاء مشلك ثم انصرف

___د الشرف فذلك ممــــا يزيـ وان ألبس الله ثوب؟ الشـــــفاء تغيض الميـــاه وقد طالما تيممها وارد فاغت ومن أمّنته خطـوب المنـــون تخوف من هـــرم أو خـــرف يقارف مستكبرات الذنوب ويغفل عن ذنب المقترف بكل أرض أمسير سسوء يضرب للناس شمسر سكك قمد كثر الغشن واسمستعانت والأرك صكتهم الدهمين صك أعمى تكتب أيدى الفناء

يسود النساس زيد ثم عمسرو كذاك تقلب الدولات دولسسه ورب شـــهادة وردت بــــزور

أقام لنصيها القاضي عيدوله

ومن شر البـــرية رب مثلك

يريد رعيــة أن يســجدوا له

*

حكم النــاس عواة مشــلما

حكمت قبل حصاة" وزاكم

4

قد أسرف الناس في الدعوى بجهلهم

حتى أدّعـــوا أنهم للخلق أرباب

البابهم كان باللذات متصللا

طول الحياة وما للقوم ألباب

ŧ.

لعمرك ما في عالم الأرض زاهــــد

يقينا ولا الرهبان أهـــل الصـــوامع

أرى أمراء الناس يسنون شرهم

وفى كل مصر حاكم " فمـــوفق

يجمور فينفى المثلك عن مستحقه

فتتسكب أسراب العيون الدوامع

ومن حسوله قوم كأن وجوههم صفا لم يثليتن بالغيوث الهوامع عدول نهم ظلم الضعيف سسجية تسمون أعراب القرى والجوامع

وانه ليحقر كبرياء الملوك ويُسفه غرورهم بمثل قوله: كذب الذى سمتى المملك قاهرا نحن الأذلة والمليك القلمال القلم وكذاك يُتعمى طاهم من كله نجس لا ويفقد فى الأنام الطلماهر

تلقّب مكنك" قاهـرا من سـفاهة ولله مولاه الممالك. والقهــــر

لم أرض رأى ولاة لقبول ملكا بمقتدر وآخر قاهرا ملكا بمقتدر وآخر قاهرا هذى صفات الله جل جرلله فالحق بمن هجر الغراة منظاهرا

كم قائم بعظاته متفقد في الدين ، يوجد حين يكشف عاهرا وعلمت قلب المرء يغرق في هرى

دنیاه ، خاب مکاتما ومجاهــــرا

يستون بالجهال عبد الرحيم

وعبد العزيز وعبد الصمحمد

وما بلغـــوا أن يكونوا لــــه

عبيدا ، وذلك أقصى الأمد !

وهو وحده ٥ الذي يستطيع أن يفضح نفاق الشعراء وزيف محترفي التدين ونفعية أصحاب المذاهب بمثل قوله:

فرِقا شعرت بأنهـــا لا تقتني

وتجادلت فقهـاؤها من حبهـا

وتقرأت لتنالها قرراؤها

*

وما أدب الأقسوام في كل بلدة

الى المسيئن الا معشر أدباء

÷

قد حتم النور والضياء

وانما دينــــا ريـــاء

وهل يجسود الحيسا أناسا

منطويا عنهم الحيــــاء

يا عالم السموء ما علمنا

أن متصليك أتقيساء

لا يكذبن امسسرؤ جهول ما فسـك لله أوليــ ويا بلادا مشي عليهــــــــا أوليه افتقيار وأغند اذا قضى الله بالمخسساري فكل أهليك أشقاء فقدت في أمامك العلماء وادلهمت عليهم الظلم دهماء فا الغي لسا عُطلت من وضب خلتني يا أخى أستغفر اللـــ ه فلم يبق في الا الذمــــ ويقال الكرام قــولا وما في المـ صر الا الشــــ رويدك قد غثررت وأنت حسسر بصاحب حيسلة يعظ النساء يحرم فيكم الصهاء صبحا تحسيّاها ، فمن مزج وصــــرف

يقول لكم : غدوت بلا كســـاء

وفى لذاتها رهن الكســــاء

*

يقولون : في المصر العدول ، وانما

حقيقة ما قالوا العــدول عن الحق

*

وانما دينهـــم دين الزناديق

نكذب العقل في تصـــديق كاذبهم

والعقل أولى باكرام وتصميديق

岩

أفضل من أفضلهم صخرة

لا تظلم النـــاس ولا تكذب

لعل أناساً في المحاريب خــو"فوا

بآى ، كناس فى المشارب أطربوا

*

اذا رام كيدا بالصللة مقيمها

فتاركها عمدا ؛ الى الله أقسرب

فلا يتمس فخارا من الفخر عائد

الى عنصر الفخار ، للتفع يضرب

لعـــل الله منـــه يُصنع مـــــــرة فيأكل فيه من أراد ويشــــــــرب ويتحمل من أرض لأخرى وما درى

فواها له بعــد البلى يتغـــــربـ *

وما احتجبت عن الأقوام من نسك وانما أنت للنــــكراء محتجب

لعسرك ما فى عالم الأرض زاهـــد يقينا ، ولا الرهبــان أهل الصوامع

تدبئن غاويهم حدار أميرهم فلما انقضت أيامه ، ذهب النسك

فأصبح من بعد التمسك بالتقى ، لأردانه من طيب فاجـــرة مسك وهل ينفع التمسيك ، والمسك تحته

خبيث نبيث والذي فوقه المسك

* اذا رؤساء الناس أمثوا تنسازعوا كئوس الأذى ، هلفالزجاجة عندم ولم يترضهم شرب المدامة أذهبت

حجى النفس الا أن يمازجها الدم

جهلت أقاضي الري" أكثر مأثما

بما نصّه ، أم شــــاعر يتغزل

وأعلم أن ابن المعلم هــــازل

بأصـــحابه والباقلانى أهـــزل

وقارئكم يرجى و بتطريبه الغنى

فآض كما غنتى ليكسب زلزل

*

أرجئوا أو اعتراوا فاني

عن مقـــامكم بمغـــزل

×

وليس حبر ببدع في صحابته

ان ســـام نفعا بأخبـــــــار تقولها

وانما رام نسموانا تزوجهما

بما افتراه ، وأمــوالا تمولهــا

لا يخلعنك داع قام في مسلا

بخطبة زان معنــاها وطولهــا

فما العظات وان راعت سوى حيل

من ذي مقال عـــلى ناس تحو ّلهـــا

ثم من غير أبى العلاء يجرؤ على أن ينغسّص عيش الظالمين ، بالالحاخ فى مثل هذا الوعيد بدعوة المظلوم :

خف دعـــوة المظلوم فهي سريعة

طلعت فجاءت بالعيذاب النازل

عَنْنَ الأمسير عن البلاد وما له الأدعاء ضيعيفها من عساؤل

*

لا شيء في الجــــو وآفــقه

أصحاب مغلوم وهو الذي يملك أن يفضح نفعية أصحاب المذاهب في عصره سئل قوله:

انم هـذه المذاهب أسب ب لعطب الدنيا الى الرؤمساء فد ف " القوم متعة لا يرقو ن لدمع الشـمّاء والمخساء كالذي ذم يجمع الزنج بالبصرة والفرمطي بالأحساء ويدنى ضراوة الطبقية ، وشرور العصر بهذه اللعنة :

خ یہ اندی سے ار عن دنیاہ مرتحلا

وليس في كفته من دينـــه طرف

لا خسر للموء الاخير آخسسرة

يبقى عليه فذاك العسنز والشرف

نرجو السلامة في العقبي وما حسنت

أعمالنا فيترجى الفـــوز والغرف

مَا بَانَ قَوْمُ عَنِ الأُولَى بِمَا جِمْعُـوا

من الحطام ولكن بالذي اقر قصوا

المرى الفقير وبالدينار كسوته

وفي صيوانك ما أعداده خوف

والنــاس ضأن تساوت في غرائزها

يلقون بالأرض كفتا كلما افترعــوا

ويدعى الرتبــة العليا أخستهم

فما يجاب لهم داع اذا ضرعـــوا

وأدركوا بدعاويهم مسدى زحل

من الرغام بما قاســوه أو ذرعــوا

سمن فاللسسه أول ن حسسراما تأولسوا ل وراعسوا وهو السوا كذب ما تقولسسوا را فطافوا وجولسوا يشسكروا ما تخولوا عثصب ما تطولسوا ل فمانوا وسسولوا و ولولسوا م الى أن تمولسوا تغولسوا أى غسسول تغولسوا

اتق الواحد المهيد ان قدوما لما يكو رغبوا الناس في المحا ورأى اللسلاد عصر خبوا في البلاد عصر خبول في البلاد عصل خبولسوا نعمة فلم واستطالت عملي الورى طلب الناقد القليد فلموا البائس الفقيد واستمالوا قلوب قدو فانظ حروا الآن فيهم

يُباين شكل غسيره في حياته

فان هلكا ، لم تلف بينهما فــرقا

ومن يفتقد حال الزمـــان وأهله

يدْم بهم غربا من الأرض أو شرقا

يجد قولهم مينا وودهم قيلى

وخيرهم شرا وصنعتهم خممسرقا

وبشرهم خـــدعا، وفقرهم غني

وعلمهم جهلا وحكمتهم زرقا

اذا طلبوا أقصى العلل اتخذوا له

بصُّم العوالي في ترائبكم طُرُقًا

اذا كنتم أوراق أثل زهــوا لكم

جراد نبــال کی تبیدکم ورقــا

هم الناس: أجبال شوامخ في الذري

وأودية لا تبلغ الأكم والبــــرقا

فسكران يسترقى ويبدل بسلة

وآخر صاحى اللب يغضب أن يترقى

*

عحبت وكم عجب في الزمان

لرأى بنى دهـــرك الفـائل

فمقتا لما أورثوا من غني

وما وهبـــوه من النـــائل

فلا تمحلن لهم منتــــة

ولو بت في صـــورة العائل

ألم ترنى وجميم الأنسا لعسل المسوت خسير للبرايا وان خافوا الردى وتهيب أطاعوا ذا الخسداع وصدقوه وكم نصـح النصـــ وغيتر بعضبهم أقوال بعض وأبطلت النهى ما أوجبـ فلا تفـــرخ اذا رُجّبت فيهـــم فقد رفعوا الدنىء ورجّب ويدال ظاهر الاسمسلام رهط أرادوا الطعن فيه وش قليل في المعاشر منج صحنا دهــر نا دهـرا ، وقدما وغيظ به بنسوه وغيسظ منهم فعذّب ساكنيه وعــــ

: وقد غلب الرجــــال مغلّبــوه

7.7

وهـــل تترجى الـــكرامة من أوان

على أي المذاهب قلب أحلنوا مكثرا وتنصيفوه وعـــــابوا من أقل وأنب ولم يرضـــوا لما سكنوه شــيدا الى أن فضضـــو. وذهد فان ياكلهم أسفا وحقدا فقـــد أكل الغــــــزال مربب ــوا ألا يخيب لهم دعــــاء وكم سأل الفقي بالقبيرح فتابعره ولو أمروا به لتجنب مضت أمم عسلي شرخ الليالي إذا عمـــدوا لعقه وكم تركوا لنبيا أثرا منيفا عمروا ، وأقسمت الرزايا لئس الرهط رهط فاما عاث فه حاسيدوه واميا غياله متكم وللأرمين خطب مستفض بعسبوم للحه

ولو قدروا على ايوان كسرى لســـاموه الردى وتعقد كأنهم لباغ أديل الشرء منكم فاحسنذروه ومات الخــــير فيــكم فاندبوه ! الليالي مغيرات السحايا کم جعلن الزيفان شرب غدا القوم للنضار فنالو ه ، وبتنسا ومن لنسا بالزبوف أو لا يبصر الفتي الذهب الأحــــ مر تشحذی به نبعال ٔ السمسیوف ا ماذا أفدت بأن أطلت تفـــكرا فيها وقد أفنيت ليـــلك وخمول ذكرك في الحـــاة سلامة ودهاك مئن أمسى لذكرك شماهرا فتجنبن متوافقين عسلى الأذي

متخالفين بواطنا وظواهــــرا وأخالنا في البحــر ليس بسالم منه الذي ركب الغـــوارب ماهرا

ملكوا فما سلكوا سبيل الرشد بل

ملأوا الديار ضـــواربا ومزاهرا

* * *

أجل ، كان أبو العلاء وحده ، هو الدى يستطيع أن يقول كلمة الحق فى عصر أخرست السيوف والأطماع فيه الألسنة والضمائر.

لند تحرر من رغبة ورهبة ، ولكنه لم يتحرر من مسئوليته الأدبية فى مقاومة الطغيان والفساد والنفعية ، والدفاع عن الحماهير التى عدر العصر حرمة انسانيتها ، وكيف كان يستطيع أن يسكت على البغى والشر ، وانه لكما قال :

فمالي لا أقــول ولي لسـان

وقد نطق الزمان بلا لسان

وبيعت بالفلوس لكل خسسزى

وجموه كالدنانير الحسان!

وقد اعتزل ، لكن أنى له أن يفر من تبعة الانتماء الى عصر فسد ، وفسد أهله :

وقد غص شرا نجدً أه والتهائم ا

كلا .. لا مفر من التزامه أديبا بقضايا المجتمع ، التزاما فرضه على نفسه تلقائيا ، فى عصر لم يكن فيه مجال للتداعى بحق الجماعة ٥ أو رسالة الأديب .

أو بعبارة أدق : فرضه عليه ضميره الحر وانسانيته المصفاة ، وشعوره بتبعة الأدب وأمانة الكلمة .

* * *

واذا كانت الجماهير قد تبلد حسها لطول ما ألفت من ظلم ، وفداحة ما تعرضت له من تغرير وتضليل ه وما تسلط على وجدانها من الحاح فى تبرير فساد الأوضاع وطغيان الحكام ، فان أبا العلاء بوجدائه الحى وحسته المرهف ه هو القدادر أن يحس لها ما تغفل عنه ، وأن يستشرف لما عز عليها أن تستشرف له من العدل الاجتماعي والخير العام .

وانه مع ذلك ليضيق أحيانا بتبلدها وغفلتها فيصيح فيها بملء السخط والمرارة والاثارة:

اسكت ، وخل مُضلَّهم وشئونه

ليسسوقهم بعصاه أو بحسامه

نُصِحوا فما قبلوا لا وباعوا كثكثا

من شر معسدنه ، بقيمة ساميه

فكأنها غنم ترود اســـامكها

من لا يسالي كيف حال مسامه

أمت اذا ما دعا الداعي لمكرمة

فهم قليل ، ولكن في الأذي حشد

ويقذفهم بحكمه الصارم:

أعادل فد ظلمتنا الملوك

ونحسن عملي ضعفنا أظملم

ذلك لأن أبا العلاء ما باع الدنيا على صدق حبه لها ، الالكي يشترى كرامة نفسه وحرية رأيه وصدق كلمته ، بحيث يستطيع أن يجهر بما يكتمه غيره تقية ومداراة ، ويصدق فيما يزيفه قائلون غيره ، من طلاب المنفعة وتجار الأدب :

فان صدقى يفمى أعسنب

طلبت للعسسالم تهذيبهم

والنساس ما صنفتُوا ولا هنذبوا

اذا ملحــوا آدمیــا ملحـ

ت مولى الموالى ورب الأمـــم

له سبجد الشامخر

على ما بعرنينه من شــــمم

ومغفرة الله مرجسوة
اذا حبست أعظمى فى الرمسم مجاور قوم تمثى الفنسسا
عمراور قوم تمثى الفنسسا
عمراور قوم تمثى الفنسسا
وليت بنى الدهسر فى غفلة
وليست جهسسالتهم بالأمم والقسة فنشك أناس لضعف العقسول

ونسك أناس لبتعسد

خصومه وانسام

وقد نطقوا مئينا عسلى الله وافتروا

فما لهم لا يفترون عليــــكا (اللزوميات)

هل كان من الممكن أن يدعه كل هؤلاء الخصوم يكشف عن غيهم ونفاقهم وزيفهم ?

أو كان من المتصور ، أن يخلّوا بينه وبين الجماهير المضللة » يوقظ فيها الوعى والتمرد ، ويمزق عن وجدانها حجاب الغفلة ?

يوفظ فيها الوعى والسرد ، ويمرق عن وجدالها حجب العلمه ، مثل أبى العلاء من يعد فى نظر عصره — وكل عصر فاسد — خارجا على المجتمع ، متمردا بسلوكه وقوله على أوضاع مقررة ونظم سائدة وأعراف مألوفة . وليس من طبيعة الأشياء ، أن يغفر المجتمع هذا الخروج المتحدى ، وأن يدع أبا العلاء يقول ما شاء ، دون أن يتصدى له بتحد مقابل ، ويفرض عليه عقوبة التمرد والعصيان ..

واذ لا سبيل الى زجره بحرمان أو اغرائه بعطاء ، فان فى عقيدته منفذا اليه ، من حيث لا يحتسب ..

مستغلين فى ذلك ، العاطفة الدينية للجماهير ، وموقنين أنها ما تكاد تسمع عنه قالة سوء تجرح عقيدته ، حتى تصد عنـــه وتنكره ، دون أن تتريث لتتحرى التهمة أو تميز حقا فيها من ماطل !

وليس من الضرورى أن يكون خصومه هم الذين يتصدون لتجريحه ، بل حسبهم أن تنطلق شائعة الاتهام من غير أن يتعرف مصدرها ، ليتطوع بترويجها حشد كاثر ، من المتدينين البسطاء غضبا لدينهم!

وقل بين أحرار الفكر والكلمة ، من لم يتهم فى عقيدته . وأبو العلاء قد خالف بسلوكه جمهور المسلمين ، فحرم على نفسه ما أحل الله من طيبات الرزق ، وجهر بأقوال تنم عن حيرته وشكه ، ومنها ما يستطاع تأويله بما ينكره الجمهور ، وبأقوال أخرى صريحة التجريح لرجال الدين ، على اختلافهم ..

فمن هنا يمكن أن ينطعن!

وقد تلقى أبو العلاء الطعنة الجارحة فى حياته ٥ وظلت تلاحقه بعد موته :

ولعلك تذكر مما مر بك من حديث رحلته الى بغداد، ما قيل عن مطاردة الفقهاء اياه لبيتين قالهما فى اليد، ديتها خمسمائة دينار، وتقطع فى السرقة ولو كان المسروق ربع دينار!

ويروون من أخباره ، أن القاضى أبا يوسف عبد السلام القزوينى قال : « قال لى المعرى : لم أهج أحدا قط . فقلت له : صدقت ، الا الأنبياء عليهم السلام .. فتغير لونه » .

وأن القاضى المنازى قال : « اجتمعت بأبى العلاء المعرى بمعرة النعمان وقلت له : ما هذا الذي يروى عنك ويحكى ?

فقال: حسدنى قوم فكذبوا على وأساءوا الى . فقلت له: على ماذا حسدوك وقد تركت لهم الدنيا والآخرة ? فقال: والآخرة أيها الشيخ ? وظل يكررها » .

ولقيه ثالث بالآية الكريمة:

« ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » .

واحتمل الرجل على مضض ، مفوضا أمره الى خالقه ، وموقنا أن مثل هذا البلاء ضريبة مفروضة على من يتحدى العرف العام ، وقلما سمح المجتمع لفرد أن يشذ عنه ويخرج عليه .

وهم بعد قد أفتروا على خالقهم ، فأى عجب فى أن يفتروا عليه ?

وقد نطقوا ميتا عـــلى الله وافتروا

فما لهم لا يفتــــرون عليكا ?

ولقد كانت صلابته فى الزهد والتعفف ، مظنة أن تحميه من الظنة والريب ، لكنها اتخذت مطعنا فيه من حيث لا يدرى ..

فالعصر الذي هضم الحقوق وأهدر الحرمات واقترف الكبائر المنكرات ، كان له في المسألة رأى آخر .

أو لم يحرم أبو العلاء ما أحل الله من طيبات الرزق ?

أو لم يقنع بما يستره من خشن الثياب ، وما يقيم أوده من ميسور النبات ? يمكن اذن أن يعد الزهد اثما ، والقناعة خطيئة ، والصوم عن اللذات معصية ..

ومثل هذا جائز سائغ ، متى اختلت الموازين وضلت المقاييس : لعمرى لقد عز المباح عليكم وهان بجهل ما يُصان ويحظر وقد رأيت كيف تمارض داعى الدعاة ، ليحرج أبا العلاء على الملا من الناس ، وكيف أرهقه بخصومة أخرجت القضية من نطاق السلوك الشخصى لزاهد متعفف ، الى جدل كلامى فى حكمة الخالق ونظام الكون وترتيب الكائنات وقضية الخير والشر .. وأقلح فى احراجه ، وأتعبه .

ومن قبل تعب المتكلمون فى القضية 4 وأعياهم أن يهتدوا الى حلها .

لكنه لم يفلح فى حمــله على العدول عن مسلكه فى رفض الحياة انكارا لفساد عصره وشرور مجتمعه ..

ورضى — وهو فى الخامسة والثمانين من عمره — « أنّ يلقى الله سبحانه وهو لا يُطالب الا بما فعل من اجتناب اللحوم ، فاذا وصل الى هذه الرتبة فقد سعد » .

ولقد حاول آخرون ، عن رفق به أو حقد عليه ، أن يقنعوه بالعودة الى الصف ، كى يعيش كما يعيش أهل العصر ويخضع لنظم الجماعة وأعرافها ، وأطالوا مجادلته على ما سمعت ، وهو يبدى العذر عن رفضه ، ويبرر سلوكه بما يظنه كافيا للاقناع ، أو قد يسكت على مضض وتعب ويأس .

دون أن يستجيب لما أرادوا .

وعوت الضباع فى أثره ، وراحت تطارده حيث اختفى رهين محبسه ، وكأنها تعتفيه وتلتمس لديه غذاءها :

قد استخفیت کالحسد المواری

ولكن الطـــوارق تختفيني

عف أثرى الزمان وما أغبت

ضباع في المسلة تعتفيني

على أن ما عاناه من ذلك كله ، كان أهون عليه مما آلمه وأضناه من افتراء المفترين: أساءوا تأويل أقواله ، وحرفوها عن مواضعها ، وزيفوا عليه مالم يقله ، فأحوجوه على اللعروف من ابائه واستغنائه عن الأمراء والولاة – الى أن يكتب (رسالة الضبعين) الى معز الدولة ثمال بن صالح أمير حلب ، يشكو اليه فيها رجلين حرفا بعض شعره فى (اللزوم) قصدا الى اهلاكه ، ويسأله أن يرجع فيه الى نسخ من الديوان فى حلب ، مكتوبة بخطوط ثقات من كتابه أمناء أتقياء:

« وفى حلب حماها الله نسخ من هذا الكتاب ، بخطوط قوم ثقات يعرفون ببنى هاشم ، أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متمسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه . وان أحضرت النسخ — ظهرت الحجة بما قلت فيه » .

كما أحوجوه الى أن يدافع عن نفسه بقوله ، يرد على القاضى المنازى حين سأله فيما ينسب اليه من أقاويل :

[«] حسدني قوم فكذبوا على » .

وكذلك استجاب ، على كره ، لالحاح أصدقائه ، فأملى كتابه (زجر النابح) شرحا لما أسىء تأويله من شعره فى (لزوم ما لا يلزم) وأبطل فيه — كما يقول ابن العديم — طعن المزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح وايمانه الصريح ، ووجه كلامه الفصيح « ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه به (نجر الزجر) بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر ، فلم يمنعهم زجره ، ولا اتضح لهم عذره » .

* * *

وشاعت كلمة السوء فيه ، ومن شأنها أن تشيع ، فجرح بعض ما قال مما قد يوهم ويشكل ، وبغيره مما لم يقل ؛ مع أن أكثر مصنفاته فى الزهد والعظات وتمجيد الله سبحانه . و (ديوان اللزوم) تفسه ، ملىء بأنفاس ايمانه الصادق وأناشيد ضراعته للخالق .

وشهد له الذين عرفوه عن قرب بصحة العقيدة وصدق الايمان ، وفيهم من كان قد استراب فى أمره تأثرا بشائعات السوء ، ثم بان له من حقيقته ما جعله يشهد له بصحة الدين وقوة اليقين . نقل « السلفى » باسناد الى القاضى أبى المهذب عبد المنعم السروجى قال : « سمعت أخى القاضى أبا الفتح يقول : دخلت على أبى العلاء التنوخى بالمعرة ذات يوم فى وقت خلوة ، بغير علم منه . وكنت أتردد اليه وأقرأ عليه » فسمعته وهو ينشد من قيله — والأبيات من ملقى السبيل — :

- 0. /

أحرزها الوالدان خسوفا والقبر حرز لها حسريز يجوز أن تبطىء المنسسايا والخلد في الدهسر لا يجوز ثم تأوه مرات ، وتلا قوله تعالى: (ان في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود . وما نؤخره الا لأجل معدود . يوم يأت لا تكلم نفس الا باذنه فمنهم شقى وسعيد) ثم صاح وبكى بكاء شديدا ، وطرح وجهه على الأرض زمانا . ثم رفع رأسه ومسح وجهه وقال : سبحان من تكلم بهذا في القدم . سبحان من هذا كلامه . فصبرت ساعة ثم سلست عليه فرد وقال : متى أتيت ? فقلت : الساعة . ثم قلت : أرى يا سيدنا في وجهك أثر غيظ . فقال : لا يا أبا الفتح ، بل أنشدت شيئا من كلام المخلوق ، وتلوت شيئا من كلام الخالق ، فلحقنى ما ترى ! فتحققت صحة دينه وقوة يقينه » .

فهل نتهم الخبر ?

لا علينا أن نفعل ، وأبو العلاء معنا ، دليل رحلة ، يقول فى (رسالة الغفران) التي أملاها في صميم عزلته :

« وأجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا الكتاب الذي جاء به محمد صلى الله عليه ، كتاب بهر بالاعجاز .. ما حتذى على مثال ولا أشبه غريب الأمثال . ما هو من القصيد الموزون ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ولا سجع الكهان ذوى الأرب . وجاء كالشمس اللائحة ، نورا للمسرة والبائحة . لو فهمه الهضب الراكد لتصدع .. (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) وان الآية منه أو بعض

الآية ، لتعترض فى أفصح كلم يقدر عليه المخلوقون ، فتكون فيه كالشهاب المتلألىء فى جنج غسق ، والزهرة البادية فى جدوب ذات نسق « فتبارك الله أحسن الخالقين » .

وكانت بلبلة!

اضطرب الناس فى أمره: بين ما يعلمون من صلابته فى الزهد والعرات ، ويسمعون من أماليه وأشعاره فى التوحيد والعطات ، وشهادة من شهدوا له بصحة العقيدة وقوة اليقين .

وبين ما يشهدون من خروجه على الجماعة بالامتناع عما أحل الله من طيبات الحياة الدنيا وزينتها ، ويسمعون من قدح فيه وتجريح ..

أو كما قال داعي الدعاة في رسالته الثالثة الى أبي العلاء:

« .. فلما رمت بى المرامى الى الشام ، سمعت أن السيخ — وفقه الله — بفضل فى الأدب والعلم ، قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل . ورأيت الناس فيما يتعلق بدين مختلفين ، وفى أمره متبلبلين ، فكل يذهب فيه مذهبا . وحضرت مجلسا جليلا أجرى فيه ذكره ، فقال الحاضرون فيه غثا وسمينا .. » .

وبعض هـذه البلبلة ، يكفى لصـد عامـة الجماهير عن أبى العلاء ، والحيلولة بينه وبينهم ..

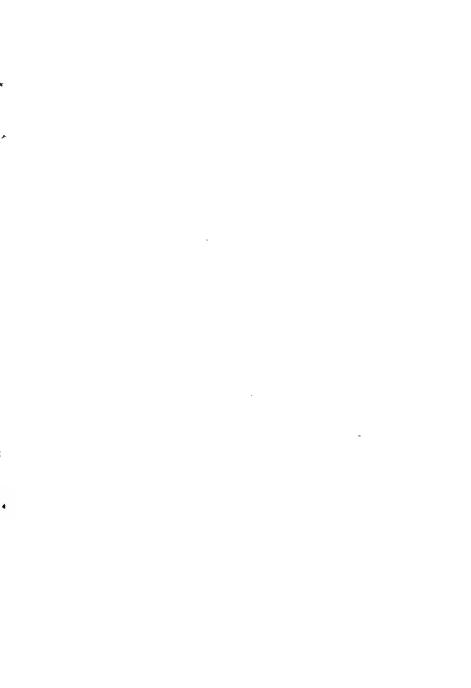
وهو ساهر فى دجى الليل البهيم يترقب أن يلوح الغلس الوالصبح ناء بعيد :

طالت عملى ساهر دجنته والصبح ناء ، فمن لنا بغلس.

الفضل نحاميش

نه سایهٔ المطانت تراث وآثار

- ضجعت القسر - في منطقت الظل لل - انحسس ارالظ للم



ضجعت الفبر

هــذا جناه أبي عـلي" وما جنيت على أحـــد (وصيته على قبره)

صمد للتجربة حتى آخر العمر .

عمى قسوة ما كابد من أثمواق بشريته ، وما لقى من افتراء عدي وعنت مجادليه .

ولقد طال به العمر وناء بأثقال الشيخوخة : سقطت أسنانه ، وانحني ظهره ، ووهن جسده وتخاذلت أعضاؤه ، فصار لا يستطيع الله بمعونة سواه .

و نصغى اليه ، دليل رحــلة ، أذ يقول وهو في الخامسة والشمانين من عمره ، من رسالة الى داعي الدعاة :

﴿ قضى على وأنا ابن أربع ﴾ لا أثرق بين البازل والربع ، ﴿ ﴿ لَوَ لَتَ مَحْنَى فَأَشْبِهِ شَخْصَى العَوْدُ النَّحْنِي . وَمُثَنِّيْتُ ۚ فَ آخَنَ ﴿ ﴿ اللَّهُ عَالَمُ وَعَدَانَى عَنِ النَّهُضَةُ — أَنْ النَّهُوضُ — عاد …

ولو مثل بحضرته السامية ، لعلم أنه لم يبق فيه بقية لأن الممثل ولا أن يجيب . لأن أعضاء متخاذلة ، وقد عجز عن القيام في السلاة فانما يصلى قاعدا والله المسلمان ..

﴿ وَانِّي لِأَعْجِزُ اذَا اصْطَجِعَتْ عَنِ القَّمُودِ ﴾ فربما استعنت

بانسان ، فاذا هم باعانتی وبسط یدیه لنهضتی ، ضربت عظامی لأنهن عاریات عن كسوة كانت علیهن » .

وكذلك ضعف سمعه الى جانب ما كان من عجزه عن البصر وعن النهضة والقيام . فيقول في قصيدته التى نظمها فى ابن أخيه القاضى عبد الله ، شاكرا له بره واخلاصه فى رعايته وتعهده : حمدتك فى الحيساة أتم حمد

وأيامي ذمم ت أتم ذم

أجــــد ك ما تركت وأنت قاض تعهد أعمى أصـــــم

والقصيدة قيلت بعد أن جاوز أبو العلاء الثمانين من عمره ٥ بشاهد من نصها : « وأنت قاض » وولاية أبى محمد عبد الله ابن أبى المجد لقضاء المعرة ، كانت فى سنة ٤٤٣ هـ كما نص على ذلك « ابن العديم » مؤرخ حلب ، وآل سليمان .

* * *

وبقى له على وهن الشيخوخة وتخاذل الأعضاء ، صفاء دهنه وتوقد قريحته ، وقوة حافظته وضبطه ، وطاقته العجيبة على الدرس ، فظل تلاميذه يقرأون عليه ويكتبون له ويأخذون عنه ، الى قبيل وفاته : فبعد الشمائين من عمره ، كان « الخطيب التبريزى » يقرأ عليه كتاب (غريب الحديث لأبى عبيد) وعنه حكى وصنف (تهذيب غريب الحديث) — فيما قرأ ابن العديم بخط التبريزى : « قال الخطيب التبريزى : وكنت قرأت هذا الكتاب ، سنة خمس وأربعين وأربعمائة ، على أبى العلاء أحمد بن عبد الله ابن سليمان التنوخى المعرى . قال : قرأ علينا سنة خمس وثمانين وثلاثمائة ، كتاب غريب الحديث ، القاضى أبو عمرو عثمان ابن عبد الله الكرجى ، وذكر أنه سمعه من أبى عمير عدى ابن عبد الباقى ، وسمعه أبو عمير من على بن عبد العزيز صاحب أبى عبيد » .

هكذا حفظ المتن ، ووعى الاسناد ، منذ قرىء عليه الكتاب ، قبل ستين عاما !

وفى الخامسة والثمانين من عمره ، أملى اجازته لأحد طلابه ، فى رواية الجزء الثانى من مصنفه (ذكرى حبيب) ونص الاجازة :

«قال أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي ، من أهل معرة النعمان : قرأ على هذا الجزء ، وهو الجيزء الثاني من الكتاب المعروف بذكرى حبيب ، الشيخ الفاضل أبو الحسن يحيى بن محمد الرازى أدام الله عزه ، من أول الجيزء الى آخره ، ووقع الاجتهاد منى فى تصحيح النسخة . وكان ابتداؤه بقراءته لسبع بقين من شعبان سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وفرغ من قراءته لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة سبع وأربعين وأربعمائة ، وأجزت له أن يرويه عنى على حسب ما قرأه . ويشهد الله أنى معتذر الى هذا القارىء — يعنى أبا الحسن — ويشهد الله أنى معتذر الى هذا القارىء — يعنى أبا الحسن — من تقصيرى فيما هو على مفترض من حقوقه . والاعتراف من تقصيرى فيما هو على مفترض من حقوقه . والاعتراف

بالمعجزة ، يمنع من اللائمة المنجزة — وكتب (الاجازة) جابر ابن زيد بن عبد الواحد بن عبد الله بن سليمان ، باذن أحمد ابن عبد الله بن سليمان المعرى ، فى المحرم سنة ثمان وأربعين وأربعين وأربعمائة ».

وكذلك بقيت له قوة نفسه وصلابة زهده وبسالة مجاهدته: كان يملى رسائله الى داعى الدعاة وهو رازح تحت ثقل الشيخوخة الواهنة وقد احتمل ما ألح عليه به الداعى من عنف الجدل ومكر الخصومة ، وصمد لوطأة مناورته ومحاورته ، دون أن يرجع عن قراره فى الامتناع عن أكل اللحم وتعذيب الحيوان ولو كان فى ذلك مدعاة للطعن فى عقيدته ، بل أصر — كما سمعت من قوله — على أن يلقى الله سبحانه ، وهو لا يتطالب الا بهذا الذى عدوه منه اثما ومعصة!

ومرض فلم يقبل أن يذوق لحم فروج وصفه له الطبيب علاجاً. وظل منذ بلغ ثلاثين عاماً ، صائم الدهر ، « فلم يفطر في السنة ولا الشهر الا الميدين ، وصبر على توالى الجديدين » لمدى تحو لصف قرن .

* * *

ثم كان لُذلك الليل الطويل آخر .

أعتل فى أوائل شهر ربيع الأولُّ سنة ٤٤٩ هـ . وعاده الطبيب المشهور « ابن بطلان : أبو الحسن المختار » وكان ممن يتردد عليه للزيارة والسماع ، أثناء مقامه بديار الشام ، ولعل ابن بطلان هو الذي وصف له كأسا من شراب ، « أتاه به القاضى الأجل

أبو محمد عبد الله ابن أخيه — فامتنع من شربه . فحلف القاضى أيمانا مؤكدة لابد من أن يشرب ذلك القدح ، فاعتذر وهو ينشد: أعبد الله ، خير من حياتى وطول ذمائها ، موت مثريح تعللنى لتسسقينى فذرنى لعلى أسستريح وتستريح ، وأحاط به خاصة أهله من بنى اخوته وبنى عمه ، ومر عليه يوم وثان والعلة لا تفارقه ، فلما كان اليوم الثالث عرفوا أنها علمة الموت!

وكان قد سألهم أن يكتبوا عنه ، فتناولوا الدوى والأقلام ، فأملى عليهم غير الصــواب ، فنظر بعضهم الى بعض وكأنهم يتساءلون عما به ، فما عهدوا عليه اختلالا فى المنطق أو سهوا عما يملى .

عندئذ ألقى القاضى « أبو محمد » القلم من يده ، وأمسك دمعه وهو يهمس لمن حوله من الأهل : أحسن الله عزاءكم فى الشيخ ، فانه ميت ..

ومات في غداة غده !

تاركا وصيته ، أن يكتبوا على قبره :

هذا جناه أبي على وما جنيت على أحد

ومسجلا بها فى لحظة النهاية ، مأساة حياته ، وموقفه منها .

وشیعوه الی مثواه الأخیر ، حیث أضجعوه فی لحده . وعلی قبره وقف أربعة وثمانون شاعرا یرثونه ، وهو مغیب تحت الثری ۵ لا یسمع صوت مفجوع فیه ، ولا یجیب نداء محزون عليه ، ولا يملك أن يرد هذا الجمع الحاشد ، الى شىء من التجلد والعزاء .

كان قريبا منهم أدنى القرب ، بعيدا أقصى البعد ، وتلميذه أبو الحسن على بن همام يناديه معاتبا :

ان كنت لم ترق الدماء زهـادة

فلقد أرقت اليــوم من جفنى دما وأبو الرضا عبد الواحد بن الفرج بن نوت المعرى ، يهتف به فى حسرة راثيا :

سمر الرماح وبيض الهند تشتور

والدهر فاقد أهــل العــلم قاطبة

كأنهم بك فى ذا القــــبر قد قبروا

فهل ترى بك دار العسلم عالمة

أن قد تزعزع منها الركن والحجــر

العلم بعدك غمد فات منصله

والفهم بعـــدك قوس ما لها وتر

والأمير أبو الفتح الحسن بن عبد الله بن أبي حصينة المعرى ٥ يبكيه ويبكي العلم والنهي والعفة والتقى والمكارم أجمع :

العلم بعد أبى العسلاء مضيع

والأرض خالية الجوانب بلقسع

ما كنت أعلم وهو يودع فى الثرى

أن الشـرى فيه الكواكب تودع

جبل ظننت ، وقد تزعزع ركنــه أن الجبال الراسيات تزعزع وعجبت أن تسع المعــــرة قبره ويضيق بطن الأرض عنه الأوسم لو فاضت المهجــ ـــات يوم وفاته ما استكثرت فيه فكيف الأدمع تتصرم الدنيا ويأتى بعده أمم 6 وأنت بشـــــ رفض الحياة ومات قبل مماته متطوعاً بأبر ما ينط هد للعف___اف وللتقي أبدا ، وقلب للمهيمن يخشه جادت ثراك أبا العماد غمامة كندى يديك ، ومـــزنة لا تقلم ان الدموع على ســـواك تضيع قصدتك طلاب العسلوم ولا أرى ــد بابك تقرع للعلم بابا بعـــــ مات النهى وتعطلت أسسبابه وقضى التأدب والمكارم أجمسع

ولمدى سبعة أيام ، أقام مقرئو المعرة على قبره يتلون القرآن ، حتى أتموا مائة ختمة ..

ثم انفض المأتم ..

واستراح المتعب ، ونام بعد طول أرق وسهاد .

ورجع الصدى يردد في وحشة المقابر :

لعمری ما آسی اذا ما تحملت

عن الجسم روح كان يُندعى لها ربعا

ثلاثا لايناس الدفين ولا سيعا

في منطعت الظل

لا تظلموا الموتى وان طال المدى

انى أخاف عليكم أن تلتقـــوا (اللزوميات)

* رفض الحياة ومات قبل مماته * كما قال راثيه .:

لكنه فرض نفسه على الحياة كما لم يفرضها أديب عربى

واختلال القيم ..

ومضى مقطوع النسل مجتث الفرع كما قال عن نفسه .. لكنه ترك تراثه « فعاش به كما لم يعش ذوو الكثرة والعدد من البنين والأحفاد ..

وقد تعرض تراثه لعوادى الزمن ومحنة الاضطهاد ، فلم يجد « القفطى » منه -- بعد قرن وبعض قرن -- الا « خمسة وخمسين مصنفا ، العدد بتقريب ، سوى ما لم يذكره : أربعة آلاف ومائة وعشرون كراسة » .

وقال: « وأكثر كتب أبى العلاء هذه قد عدمت ، وانما يوجد منها منا خرج عن المعرة قبل هجم الكفار عليها وقتل أهلها ونهب ما وجد لهم ه فأما الكتب الكبار التي لم تخرج عن المعرة فعدمت ، وان وجد منها شيء فانما يوجد البعض من كل كتاب » .

وجاء « ياقوت » بعد القفطى ، فعد من مصنفات أبى العلاء اثنين وسبعين مصنفا ، ذكرها بأسمائها ، مع تعريف موجز ببعضها . ولم تصل الينا هذه البقية مما رأى القفطى وأحصى ياقوت ، وانما تاه أكثرها فى غيابة الزمن » وترك الباقى مدفونا فى خزائن الكتب لمدى قرون ، لم يهتم أحد بنشره ، ولا عتنى به الشراح والدارسون ممن عاشوا فى الأقطار العربية على ذلك المدى المتطاول .

شغلهم عنه الكلام فى عقيدته ، وترديد ما تناقل اليهم من أقوال سابقيهم فيها .

واختلفوا فيه كما اختلف من قبلهم :

منهم من أمسكوا عن الجزم باتهامه تحرجا ، أو أشكل عليهم أمره لكثرة ما قال فى تمجيد الله ، وما ألف من مصنفات فى المواعظ ، ولما شاع وذاع من ورعه وزهده ، فاكتفوا بنقل أقوال من جرحوه ، ونقلوا معها أقوال من شهدوا له بصدق الايمان وقوة اليقين ، ثم عقبوا على هذه وتلك بالكلمة المشهورة : « والله أعلم » .

وقذفه بعضهم بالزندقة والالحاد وسقم الدين α وقرنوه مع α أبى حيان التوحيدى α و α ابن الراوندى α — من أشهر الزنادقة فى الاسلام — فى قرن واحد α وتقربوا الى الله بلعنته α وحكموا عليه بالخسران فى الدنيا وعذاب الجحيم فى الآخرة .

يتوارثون ذلك خلفا عن سلف ، ويتناقلونه تقليدا ، جيلا فى اثر جيل . حتى رؤيا المنام ساقوها فى اتهامه ، وتتابع الاخباريون منهم يوردونها ناقلين ، فى معرض الكلام « عما تذاكر به متهموه من الحاده » :

ففى القرن السادس ، نقل « ابن الجوزى » عن ابن الصابى أنه قال : « ولما مات المعرى رأى بعض الناس فى منامه كأن أفعيين على عاتقى رجل ضرير ، قد تدليا الى صدره ثم رفعا رأسيهما فهما ينهشان من لحمه وهو يستغيث . فقال : من هذا ? فقيل : المعرى الملحد ! » .

وحكاها من بعد « ابن الجـــوزى » سبعة من مؤرخى أبى العــالاء ه من القفطى فى القرن السابع ، الى أبى الفتــح العباسى فى القرن العاشر!

وظلموه ميتا كما ظلموه حيا .

تقولوا عليه بشعر لم يرد فى ديوانيه ، وقد تم تدوينهما فى حياته ، وكتبهما عنه مباشرة كتاب له أمناء ثقات : فسقط الزند — ديوان شعره الأول — قرىء عليه ببغداد ، وديوان اللزوم ، وجدت منه فى حياة أبى العلاء نسخ موثقة ، أشار اليها بقوله فى رسالة الضبعين :

« وفى حلب حماها الله ، نسخ من هـذا الكتاب بخطـوط قوم ثقات يعرفون ببنى أبى هاشم » أحرار نسكة ، أيديهم بحبل الورع متسكة ، جرت عادتهم أن ينسخوا ما أمليه » .

وقد أملى فيما أملى من مصنفاته ، (ضوء السقط) شرحا لديوان سقط الزند ؛ و (الراحلة ، وراحة اللزوم ، وزجــر النابح ، ونجر الزجر) شرحا لديوان اللزوم ، وتحريرا لفهم ما أسيء تأويله منه .

وأكثر هذا الذى نسبوه اليه — مما لم يرو فى ديوانيه — لا يثبت على الفحص النقدى . ومنه ما هو منسوب الى غيره لا كالبيتين :

اذا كَان لا يحظى برزقك عاقــل

وترزق مجنـــونا ، وترزق أحمقا

فلا ذنب يا رب السماء على امرىء

رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

رواهما ابن الجوزى فى (المنتظم) بين الأشعار المنسوبة اليه 4 الدالة على كفره ؛ ونقلهما من بعده القفطى ؛ وياقوت ؛ وسبط ابن الجوزى وابن كثير ؛ والعينى — وهؤلاء الثلاثة ه صرحوا بالنقل عن ابن الجوزى — ثم ابن السبكى فى (طبقات الشافعية) .

والبيتان مماً لم يرو فى ديوانه .

وهما منسوبان فى (معاهد التنصيص) للعباسى — ص ٧١ ط بولاق سنة ١٢٧٤ — لابن الراوندى ، وهما به أشبه ، وله فى هذا المعنى ، بيتان آخران رواهما أبو العلاء فى (رسالة الغفران) بين أشعار الزنادقة (١).

⁽۱) رسالة الغفران : تحقيق بنت الشاطىء ـ ص ٤٩٥ ط ٣ ذخائر .

وأملى معهما ما نصه :

« ولما أجلى عمر بن الخطاب أهل الذمة عن جزيرة العرب ه شق ذلك على الجالين . فيقال ان رجلا من يهود خيبر يعرف بسمير بن أدكن قال فى ذلك :

يعسمول أبو حفص علينا بدراه

رويدك ، ان المــرء يطفو ويرسب

كأنك لم تتبع حمولة ماقط

لتشبع ، ان الزاد شيء محبب

فلو كان موسى صادقا ما ظهرتم

علينــٰـــا ، ولكن دولة ثم تذهب

ونحن سبقناكم الى المين فاعسرفوا

لنا رتبة البادى الذي هــو أكذب

مشيتم على آثارنا في طريقيا

وبغيتكم في أن تسودوا وتكسبوا

نقلها « ياقوت » في معجمه ، ثم عقب عليها بقوله :

« وهذا يشبه أن يكون شعره ، نحله هذا اليهودي . أو أن

ايراده لمثل هذا واستلذاذه به من أمارات سوء عقيدته!» .

وجاء مصنفو كتاب (تعريف القدماء بأبى العلاء) فوضعوا أمام هذه الأبيات فى فهرس القوافى 4 اسم أبى العلاء ، وكأن ما شبته لياقوت وساقه على سبيل الظن والشك ، قد صار ثابتا وكذلك راب متهميه ، ما فى (رسالة الغفران) من أخبار عن الزنادقة ومرويات من أشعارهم ، كأنه كان يستلذ بها ! وذهب بعضهم فى تأويل أقواله الى مدى بعيد من ظلم الاعتساف وشطط الملحظ ، كمثل ما فعل « الزمخشرى » فى (الكشاف،) فى تفسير قوله تعالى : (انها ترمى بشرر كالصقر . كأنه جمالات صفر) .

نقل فيه بيت أبي العلاء في سقط الزند:

حمراء ساطعة الذوائب في الدجي

ترمى بكل شـــرارة كطراف

ثم قال ما نصه:

«شبهها بالطراف ، وهو بيت الأدم ، فى العظم والحمرة ، وكأنه قصد بخبثه أن يزيد على تشبيه القرآن . ولتبجّعه بما سول له من توهم الزيادة ، جاء فى صدر بيته بقوله : حمراء . توطئة لها ومناداة للسامعين على مكانها . ولقد عمى — جمع الله له عمى الدارين — عن قوله عز وجل : كأنه جمالات صفر . فانه بمنزلة قوله : كبيت أحمر . وعلى أن فى التشبيه بالقصر وهو الحصن ، تشبيها له من جهتين ، من جهة العظم ومن جهة الطول فى الهواء . وفى التشبيه بالجمالات — الجبال الضخمة — شبيه من ثلاث جهات : من جهة العظم والطول والصفرة . فأبعد الله اغرابه فى طرافه ، وما نفخ به شدقيه من استطرافه » .

فهل مثل هذا التأويل المشتط ، مما يخطر على بال قارىء منصف ، تحرر من سيطرة فكرة سبقت اليه بالاتهام ? وأبو العلاء هو الذي قال عن « القرآن الكريم » ما نقلنا اليك نصه ، من رسالة الغفران » عند الحديث عن خصومة العصر لأبي العلاء — ص ٢١٨ .

* * *

« وتحدثت الألسن باساءته » لكتابه الذي زعموا أنه عارض به القرآن ، وعنونه : الفصــول والغايات ، محاذاة للســـور والآيات » .

وعبارة « محاذاة للسور والآيات » التي ذكر ت أول ما ذكرت ه وصفا للكتاب من بعض القدامي ، لم تلبث أن زحزحت عن موضعها من الالحاق الوصفي ، واقترنت باسم الكتاب حتى صارت شطر عنوانه » على ما نقل الذهبي في تاريخ الاسلام: « الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات » .

وربماً جاءوا بفقرات منها ، وصدروها بقولهم :

« ومما ظهر من قرآن أبي العلاء » كما فى (الصبح المنبي) للبديعي .

> وفى الأفق رجع صدى من صوت يقول: لا تظلموا الموتى وان طال المـــدى

انى أخاف عليكم أن تلتقوا فيهز الضمائر الحية لبعض مؤرخيه « ويكشف عن بصيرتهم غطاء ألقته عليها أقاويل الزور وشائعات الافتراء .

منهم « القفطى » الذى ألح عليه النداء فى اليقظة والمنام ، فكتب فى (انباه الرواة) :

« كنت فى سن الصبا ، وذلك فى حدود سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، أقدح فى اعتقاد أبى العلاء ، لما أراه من ظواهر شعره وما ينشد له فى محافل الطلب . فرأيت ليلة فى النوم كأننى قد حصلت فى مسجد كبير ، فى شرقيه صفة كبيرة ، وفى الصفة مىل الحصر مفروش من غير نسج ، وعليه رجل مكفوف متوسط البياض .. وهو مستقبل القبلة فى جلسته ، والى جانبه طفل ، وكأنى فهمت أنه قائده . وكأنى واقف أسفل الصفة ومعى ناس قليل ونحن ننظر اليه وهو يتكلم بكلام لم أفهم منه شيئا . ثم قال فى أثناء كلامه مخاطبا لى : ما الذى يحملك على الوقيعة فى دينى ? وما يدريك لعل الله غفر لى ? فخجلت من قوله وسألت عنه من الى جانبى ، فقال لى أحدهم : هذا أبو العلاء المعرى .. فابتسمت متعجبا للرؤيا ، واستغفرت الله لى وله ، ولم أعد الى الكلام فى حقه الا بخير » .

ومنهم « ابن العديم » الذي استقصى أخباره وآثاره ، وهو لا يبغى الا أن يجمع مادته لتأريخ أعلام حلب الى عصره ، فهاله ما لحق أبا العلاء من ظلم فادح » وما شاع عنه من افتراء باطل شوه صورته بغير حق . وأرقه التفكير فيما تفرضه أمانة التاريخ على مثله » من تصحيح الزيف الشائع والوهم المسيطر ، حتى ندب نفسه للمهمة الصعبة ، فتفرغ لاستقراء كل المرويات عن أبى العلاء ولقى كل الباقين من أسرته وأهل بيته ، واستقصى روايات من لقوه وصحبوه وتتلمذوا له أو قرأوا عليه وكتبوا له ، يأخذها

باسناد متصل من رجال عصره الى عصر أبى العاده ، وبينهما نحسو قسرن ونصف قرن . ثم ألف (كتاب الانصاف والتحرى في دفع الظلم والتجرى عن أبى العالم المعرى) وقدم له فقال بعد حمد الله الكريم العادل محق الحق ومبطل الباطل ، على ما منحه من التوفيق وهداه به الى سواء الطريق :

« وبعد فاني وقفت على جملة من مصنفات عالم معرة النعمان أبي العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان ، فوجدتها مشــحونة بالفصاحة والبيان ٥ مودعة فنونا من الفوائد الحسان ، محتوية على أنواع الآداب مشتملة من علوم العرب على الخالص واللباب. لا يجد الطامح فيها سقطة ، ولا يدرك الكاشح فيها غلطة . ولما كانت مختصة بهذه الأوصاف ، مميزة على غيرها عند أهل الانصاف ، قصده جماعة لم يعوا وعيه ، وحسدوه اذ لم ينالوا سعيه ٥ فتتبعوا كتبه على وجه الانتقاد ووجدوها خالية من الزيغ والفساد . فحين علموا سلامتها من العيب والشين ، سلكوا فيها معه مسلك الكذب والمين ؛ ورموه بالالحاد والتعطيل ، والعدول عن سواء السبيل . فمنهم من وضع على لسانه أقوال الملحدة ، ومنهم من حمل كلامه على غير المعنى الذي قصده ، فجعلوا محاسنه عيوبا وحسناته ذنوبا وعقله حمقا وزهده فسقا ، ورشقوه بأليم السهام وأخرجوه عن الدين والاسلام ، وحرفوا كلمه عن مواضعه وأوقعوه في غير مواقعه » .

والتفت « ابن العديم » الى محنة أهـل الفضـل بالعصر : « يطالبهم بتراته ويقصدهم باساءته ويسلط عليهم من أبنائه أعداء . قصدوا أبا العلاء بالطعن والاساءة 4 واللبيب مقصود والأديب عن بلوغ الغرض مصدود ، وكل ذي نعمة محسود » .

كما التفت الى أن كتاب الله العزيز الذى لا يتقبل التبديل ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تأوله جماعة من أرباب باطل الأقاويل ، على غير وجوه التأويل ؛ حتى ان جماعة من الكفار تسبكوا منه بآيات جعلوها دليلا على ما ذهبوا اليه من الضلالات « فما ظنك بكلام رجل من البشر ليس بمعصوم ان زل أو عثر ، وقد تعمق فى فصيح الكلام وأتى بما لا يتيسر لغيره ولا يرام .. اذا قصده بعض الحساد فحمل كلامه على غير المراد .

« وقد وضع أبو العلاء كتابا وسمه بزجر النابح ، أبطل فيه طعن المزرى عليه والقادح ، وبين فيه عذره الصحيح وايمانه الصريح ووجه كلامه الفصيح ، ثم أتبع ذلك بكتاب وسمه بنجر الزجر ، بين فيه مواضع طعنوا بها عليه بيان الفجر ، فلم يمنعهم زجره ولا اتضح لهم عذره ، بل تحقق عندهم كفره واجترءوا على ذلك وداموا ، وعنفوا من انتصر له ولاموا ، وقعدوا في أمره وقاموا .. حتى حكوا كفره بالأسانيد .. وكفره من جاء بعدهم بالتقليد .

« فابتدرت دونه مناضلا ، وانتصبت عنه مجادلا .. وذكرت فى هـذا الكتاب مولده ونسبه ، وتحصيله للعلم وطلبه ، ودينه ومذهبه ، وورعه الشديد وزهده ، واجتهاده القوى وجده ، وطعن القادح فيه ورده ، ودفع الظلم عنه وصده » .

ومنهم أبو عبد الله شمس الدين الذهبي (٣٧٣ : ٧٤٨ هـ) الذي قال بعد أن نقل ما وصل اليه من أقوال الذين اتهموا أبا العلاء ، والذين شهدوا له بالتقى والايمان :

« وفى الجملة ، فكان من أهل الفضل الوافر والأدب الباهر والمعرفة بالنسب وأيام العرب .. وله فى التوحيد واثبات النبوة وما يحض على الزهد واحياء طرق الفتوة والمروة ، شعر كثير . والمشكل منه فله — على زعمه — تفسير » .

ومنهم ابن الوردى (ت ٧٤٩ هـ) الذى قال فى كتاب (تتمة المختصر فى تُخبار البشر). بعد أن تقل مرثية تلميذه ابن همام:

« وقول تلميذه: * لم ترق الدماء زهادة * يدفع قول من قال انه لم يرق الدماء فلسفة » ونسبه الى رأى الحكماء . وتلميذه أعرف به ممن هو غريب يرجمه بالفيب . وماذا على من ترك اللحم وهو من أعظم الشهوات — خمسا وأربعين سنة زهادة ?! وقد قال المكى فى قوت القلوب : اباحة حلال الدنيا حسن » والزهد فيه أحسن . ولما أتى رسول الله أهل قباء بشربة من لبن مشوبة بعسل ، وضع القدح من يده وقال أما انى لست أحرمه » ولكنى أتركه تواضعا لله تعالى . وأتى عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل فى يوم صائف فقال : اعزلوا عنى الرقائق وغيرها مشحونة بترك السلف الصالح للشهوات والملاذ النائية ، رغبة فى النعيم الباقى » .

ثم نقل « ابن الوردى » مرثية الأمـــير أبى الفتح المعرى لأبى العلاء » وعقب عليها بقوله :

« فانظر الى ما رثاه أيضا به هذا الرجل ، ووصفه به من تقاه ورفضه للحياة وموته قبل الموت وتطوعه ، وهو أيضا أعلم به من الأجانب . وبالجملة فقد ألنف الصاحب كمال الدين ابن العديم ، رحمه الله ، في مناقبه كتابا سماه : كتاب العدل والتحرى في دفع الظلم والتجرى عن أبي العلاء المعرى ، وقال فيه : انه اعتبر من ذم أبا العلاء ومن مدحه ، فوجد كل من ذمته لم يره ولا صحبه ، ووجد كل من لقيه هو المادح له . وهذا ليل لما قلته .

« وصنف بعض الأعلام فى مناقبه كتابا وسماه : دفع المعرة عن شيخ المعرة . وفى هذين الكتابين فصول من نوادر ذكائه واجابة دعائه » .

وكذلك غضب ابن فضل الله العمسرى (ت ٧٤٩ هـ) لأبى العلاء . فيما لحقه من ظلم عن غير حق ، فقال فى (مسالك الأبصار) :

« رفض الدنيا وما سلم .. وتداوى بالياس من مطامعها ودارى الناس بترك حظه لهم ٥ ومع هذا ظالم . نفض يديه من الدنيا وساكنها ٥ وخفض لديه قدر محاسنها .. وأخذ نفسه بالقناعة حتى صارت جننة تقيه المطامع ، ومنة تقويه على مغالبة الأمل الطامع ..

« وكان مطلعا على العلوم .. متبحرا فى اللغة ، متسع النطاق فى العربية ، جامع الشموب للطرق الأدبية ، ندرة فى العمالم وشذرة فى بنى آدم ، ما ولدت مثله الليالى ولا أوجدت شبيهه المعالى .

« وله من بدائع النظم والنثر قمراها ، ومن روائع العلم والعمل سمراها .. هذا على انقطاع حتى عن نفسه ، وامتناع حتى عن أنسه ، ونفار حتى من ظله .. مع ما منى به من فقد حاسة بصره .. وخلوه ممن يماثله فى بلده .

« والناس فيه بين مكفر ومعتقد له الولاية ، وما بين بين هذه الغاية » .

ثم نقل « العمرى » ما كتبه ابن العديم مقدمة لكتابه الانصاف والتحرى .

* * *

وظل مع ذلك مظلوما ..

ومضت قرون ذات عدد ، والتهمة تلقى ظلها على أبى العلاء فتحجبه عن أجيال من أبناء العربية ، فى عصور لم تكن تحتمل أن تخلى بينهم وبين هذا الأديب الفرد ، يهز وجدائهم بحر كلمته ، وينفذ الى قلوبهم وضمائرهم بشرف سلوكه وبطولة احتماله ، بسالة مقاومته للبغى والطفيان ، وحملته على الفساد والنفاق ...

ومن عجب أن تلك العصور التي رجمت أبا العلاء ، بتهمة الزندقة والالحاد ؛ رث فيها الدين وعاد الاسلام غريبا في ديار الاسلام ، وفقد حرمته في صراع المذاهب ومعترك الأهواء .

ففيم كانت هذه الحمية للدين 4 تنكر على أبى العلاء ما حرم على نفسه من طيبات الرزق الحلال 4 ولا تنكر اباحة الحرمات وانتهاك المقدسات? . ترى في امتناعه عن أكل اللحم وشرب اللبن اثما 4 وتستظرف مجالس الشراب ومحافل اللهو والمجون 4 ولا ترى اثما في أكل حقوق الناس وشرب دمائهم!

فيم الغضب للاسلام ، يأخذ أبا العلاء بكلمات جرى بها لسانه تخفيفا عن كربه واحتجاجا على اختلال الأوضاع وفساد القيم ونفاق محترفى الدين ، ولا تأخذ آخرين بادعاء النبوة واعتناق المثنوية والجهر بالحلول والتناسخ والرجعة ، كأن لم يكن في الدنيا غير أبي العلاء عدوا للدين وخصما للمسلمين!..

وأعجب من هذا ، عزوف الشراح والدارسين عن أدب أبى العالاء اشتغالا بعقيدته ، وهم الذين شغلوا بديوان أبى الطيب ، وأقاموا لصاحبه عرشا جثوا من حوله سجدا ، جيلا بعد جيل .

وأبو الطيب قد ادعى النبوة فيما قالوا وأكدوا 4 على حين كان الناس فى أمر أبي العلاء ، بين متهم ومعتقد له الولاية كما قال « العمرى » . وما زاد متهموه على أن قالوا انه حرم على تفسه الرزق الحلال 4 ونطق بشعر موهم ، فى النبوة والأنبياء ، وصرح فى بعض شعره بحيرته وشكه فيما وراء الموت .

ولم يقل أحد قط انه ادعى النبوة .. ولا استطاعوا أن يأخذوه قط ، بكلمة شرك . ولا أخذوا عليه مأخذا في ورعه وصلابة زهده وعفة ضميره ويده ، بل انه وجد من ينفى عنه كل تهمة ؛ ويشهد بصدق اعتقاده وقوة يقينه .

وتغاضوا عن شعره فى تمجيد الله والاقرار بوحدانيته ، وعن مصنفات له فى الزهد والمواعظ!

ولا تفسير لهذا عندى 4 الا أن أبا العلاء كان نمطا فريدا لا عهد لتلك العصور بمثله ، ومن ثم بقى فيها غريبا لأنه ليس من أهلها ، وصدقت فيه كلمته :

أولو الفضل في أوطانهم غسرباء

تشيذ وتنأى عنهم القرباء

لقد رفض حياتهم ، فحاولوا أن يرفضوه !

« وقعدوا فى أمر عقيدته وقاموا ، وحكوا كفره بالأسانيد ، وكفره من جاء بعدهم بالتقليد » كما قال ابن العديم ..

تشويها لصورة الأديب الحر المناضل .. استغلوا فيه العاطفة الدينية للجماهير ، كي تظل بمعزل عنه !

وزادوه تشويها » فقالوا انه عدو المجتمع ، وما كان عـــدوا الا لأعداء المجتمع » ونسوا أنه القائل :

ولو أنى حُبيتُ الخله فردا لما أحببت بالخله انفرادا فلا هطلت على ولا بأرضى سحائب ليس تنتظم البلادا وقالوا: متشائم ، يئد الطموح فى نفوس الشبان ، ونسوا

أقواله فى تمجيد العمل ، ونسوا أنهم ما فتئوا يرو جون زهديات لأبى العتاهية ، نظمها وهو غارق الى أذنيه فى الترف بقصر

وقالوا فى أدبه: انه جمع الى السواد الغموض والتعقيد ، وقد حجبوا تراثه فلم ينشروه ، وانهم ليعلمون أنه تولى بنفسه شرح ديوانيه السقط واللزوم ، وفسر غريب الألفاظ فى الغفران والفصول والغايات ، وأتبع كل لغز له فى كتاب الألغاز الذى نظمه فنا بديعيا ، بحل مفسر للتغز .

وجحدوه أديبا بدعوى أنه فيلسوف .

وجحدوه فيلسوفا بدعوى أنه أديب .

وصوته يأتى من وراء القبور :

* أولو الفضل في أوطانهم غـرباء *

انحسارالظتام

هو تن عليك ولا تبال بحادث يشجيك ، فالأيام سائرة بنا (اللزوميات)

حُنجِب أبو العلاء عن أبناء العربية ، فى عصور رأت فيه خطراً على وجدان المجتمع ، بسلوكه الشريف وأدبه الحر ..

ومع انحسار ظلمات الطغيان والطبقية والرجعية ، بدأ نور الوعى يكشف عن بصيرتنا الغطاء .

وسمعنا أن المستشرقين شغلوا بأبى العلاء واحتفلوا بتراثه ، فنشر المستشرق الانجليزى « نيكلسون » تعريفا برسالة الغفران وفقرات من نصها ، فى المجلة الأسيوية الملكية فى أعوام ١٨٩٩ : ونشر المستشرق الاسبانى « ميجويل أسين بلاسيوس » عام ١٩١٧ دراسته للأصول الاسلامية فى الكوميديا الالهية لدانتى ؛ وفيها فصل كامل عن تأثر دانتى بأبى العلاء فى الغفران . ونشر « مرجليوث » الانجليزى مجموعة (رسائل أبى العلاء) ونشر « كراتشكوقسكى » عميد المستشرقين الروس ، مقدمة ونشر « كراتشكوقسكى » عميد المستشرقين الروس ، مقدمة (رسالة الملائكة) وتتابعت بعد ذلك بحوثهم ودراساتهم ، لأديبنا المغمور فينا ، فلفتتنا اليه بعد طول غفلة واهمال .

وكان للأستاذ الدكتور طه حسين الفضل الأول فى احياء (ذكرى أبى العلاء) فينا 4 ونقله الى بيئة الدراسات الجامعية .

وكانت هذه الذكرى ، موضوع رسالته التى نال بها من جامعتنا درجة الدكتوراه ؛ سنة ١٩٢٥ .

ووضع بعدها كتابيه : رهين المحبسين ، ومع أبي العــــلاء في سجنه .

ودعا الى نشر تراثه فينا ، وكان هو الذى اقترح أن تكون هدية مصر الى أبى العلاء فى مهرجان الذكرى الألفية لمولده — دمشق ١٩٤٤ — ذلك السفر القيم الذى جمع نصوص (تعريف القدماء بأبى العلاء) .

وباشرافه كذلك ، نشرت شروح سقط الزند فى طبعة جديدة متقنة .

ثم تتابعت الجهود في الميدان:

نشرت القاهرة عام ١٩٣٨ طبعة محققة للقسم الأول من (الفصول والغايات ، تحقيق الأستاذ زناتى) لنصغى فيها الى نبض ضراعة وابتهال ، ومواعظ تمجيد وقنوت ، وتأملات أديب يتداوى من محنة الحياة باليأس منها . وهى التى زعموا أنها معارضة للقرآن ، وحرفوا عنوانها فجعلوه « الفصول والغايات في محاذاة السور والآيات » .

وفى عام ١٩٥٠ ، نشرت القاهرة النص المحقق لرسالة الغفران 4 تحقيق بنت الشاطىء ؛ وأرفقتها فى طبعتيها الشانية والثالثة بنص محقق لرسالة ابن القارح ، آضاء لنا فهم ما راب

الذين قبلنا ، من ايراد أبى العلاء لأخبار الزنادقة ومراويات من أشعارهم ، وما كان أبو العلاء فيما جاء به من ذلك متطوعا مستلذا كما زعموا ، وانما هو رده على ما فى رسالة ابن القارح من أخبارهم وأشعارهم ، وقالوا : « فى رسالة الغفران مزدكة واستخفاف » ورأينا فيها أثرا فنيا فريدا كاشفا عن نفسية أبى العلاء فى مجاهدته النفسية ، واستخفافا بالنفاق وسخرية بالمنافق!

ونشرت دمشق (رسالة الملائكة) التى حققها الأستاذ محمد سليم الجندى ، بعد أن نشر « كراتشكوڤسكى » مقدمتها » فأضافت جديدا الى ما لدينا من علم أبى العلاء وفنه الأدبى .

كما نشرت له آثار أخرى 4 لم تستكمل حظها من التحقيق المنهجى مثل ديوان اللزوميات ، وعبث الوليد ، وملقى السبيل . وهى تخدم فى الميدان الى أن يتاح لنا الظفر بنصوص محققة لها .

وتلقت المكتبة العربية المعاصرة «عددا غير قليل من الدراسات العلائمة » أذكر منها:

أبو العلاء وما اليه: لعبد العزيز الميمنى الهند المهرجان الألفى لأبى العلاء: بحوث ومحاضرات سورية الجامع فى أخبار أبى العلاء: محمد سليم الجندى سورية النقد واللغة فى رسالة الغفران: أمجد الطرابلسى سورية أبو العلاء ناقد المجتمع: زكى المحاسنى سورية أبو العلاء المعرى: أحمد تيمور مصر رأى فى أبى العلاء: أمين الغولى مصر

رجعة أبى العلاء: عباس العقاد مصر الحياة الانسانية عند أبى العلاء: بنت الشاطىء مصر الففران: دراسة نقدية: بنت الشاطىء دار السلام فى حياة أبى العلاء: بنت الشاطىء (نشرته وزارة الثقافة ببغداد)

واسترد أبو العلاء مكانته فينا :

الأديب المناضل ، رفض الحياة فى عصره احتجاجا على فسادها ، واعتزلها انكارا لاختلال أوضاعها ، وتصدى مع ذلك لقضايا مجتمعه ملتزما بها من تلقاء ذاته ، لم يحمله عليها سوى ضميره ، ولا ألزمه بها غير وجدانه الملهم وانسانيته النبيلة المصفاة .

والضرير البصير ، حجبه العمى عن الدنيا ، وعزلته سجونه عن الناس ، لكن هذه الحواجز لم تعزل وجدانه ولم تسدل الفطاء على بصيرته ، بل العلها ردته أرهف ما يكون حسا وأصفى رؤية ، فكان من أعرف الناس بالناس كما قال .

والمقيد الحر ، باع كل الدنيا ليشترى شرف ضميره ورأيه ، وانسحب من السباق متنازلا عن كل شيء فى سبيل كرامته وحريته ، وراض بشريته على أقسى ضروب الحرمان ، محققا بسلوكه العملى كلمة قالها « الشنفرى » الشاعر الجاهلى الصعلوك ، من قديم الزمان :

أديم مطال الجوع حتى أميتــــه

وأصرف عنه الذكر صفحا فأذهل

وأستف ترب الأرض كيلا يرى له

على من الفضل امرؤ متفضل

* * *

وانه ليعيش اليوم حيا فى ضمائرنا ، يناضل من وراء ألف عام ليصحح فهمنا للأدب ، ويحررنا من قيم أدبية ورثناها عن نقاد سلفوا وعصور خلت ، وظلت مسيطرة علينا تحتكم فى ذوقنا للأدب ، وتقديرنا لمنازل الأدباء وأقدارهم .

وسيظل حيا فى ضمائر الأجيال من بعدنا ، ترى فيه أديب العربية الأكبر الذى استطاع أن يجد نفسه والظلمة من حوله كثيفة داجية ، والذى يستطيع اليوم وغدا ، أن يعلمنا رسالة الأديب وأمانة الفن وشرف الكلمة .

ويعلمنا معها ؛ بسالة المجاهدة وبطولة الاحتمال ! وسالام على أبي العلاء !

فهنرسن

صفحه	1 7 .
الفصل الثالث	عذه الترجمة ٣
في مفترق الطريق	الفصـــل الاول
رحله الى بغداد	قبل المولد (الوراثة)
مناخ العصر الله	أجداد وآباء :
لحديث الذهاب ٩٠	
في خضم العاصمة ١٠٥	تنـوخ ۸ بنو الساطع ۹
حديث الاياب ١١٥	آل سليمان ۱۱
مُوتُ الأم ١٢٩	أخواله: بنو سبيكلة ١٣
الفصل الرابع	1
C. 3" 0———	الآسرة ا
المرحلة الثانية :	الوالد الوالد الله
معركة المجاهدة	الأم ۱۲۱
رهين المحبسين ١٤١	الاخوة الاخوة
صائم الدهر ١٦٠	الفصل الثاني
السر المذاع ١٦٧	رحلة حيـــاة
الاديب الحر العد العد	المرحلة الأولى :
خصومة واتهام ٢١٣	معركه التحدى والطموح
الفصل الخامس	الطفل الضرير ٣٣
	الغلام الموهوب ٢٣
نهاية المطاف (تراث وآثار)	الشاب الطامح الشاب الطامح
ضجعة القبر ٢٢٣	
في منطقة الظل	ومصاف ناسعه
انحسار الظلام ٢٤٧	موت الآب ٢٦ احدى الراحتين ٢٧
1	